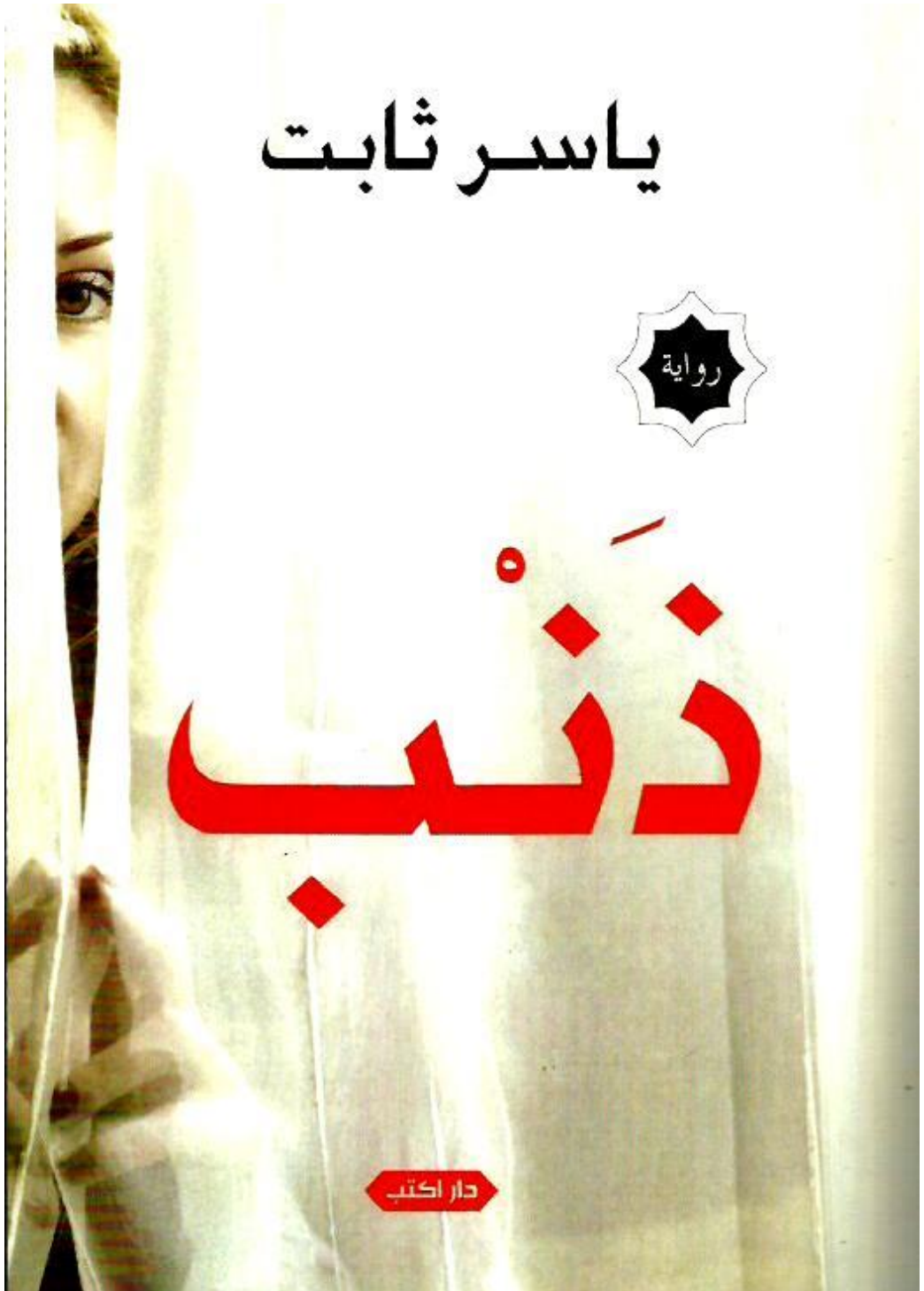
ياسر ثابت
رواية
ذَنْب
دار اكتب

ذَنْب

ذنـــــب
د.ياسر ثابت
رواية
تصميم الغلاف إسراء ياسر
رقم الإيداع ٢٠١٤/١٣٢٦٩
I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٤٨٨-٣٠٣-٣

دار اكتب للنشر والتوزيع

الإدارة ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور،
المرج الغربية، القاهرة
المدير العام يحيى هاشم
هاتف ٠١١٤٤٥٥٢٥٥٧ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨
E – mail :daroktob١@yahoo.com
دار اكتب للنشر والتوزيع : Facebook

الطبعة الأولى ، ٢٠١٤م
جميع الحقوق محفوظة©
دار اكتب للنشر والتوزيع

ذَنْــب

د. ياسر ثابت

رواية

دار اكتب للنشر والتوزيع

(١)

الأنوار مطفأة في ذلك الجسم المعدني الضخم الذي كان يعبر بي إلى الضفة الأخرى من المحيط الأطلسي.

مقعدي مجرد رقم: ٣٦ A.

لكنه رقم كافٍ لكي يكون موقعـًا استراتيجيـًا، أولاً لملاصقته للنافذة الصغيرة التي تطل على الغيوم النائمة في ذلك الليل، وثانيـًا لأنه منحني فرصة مسح جزء كبير من منطقة الجناح بعينيّ، لأرى هؤلاء الغارقين في عسل الطُمَأنينَة أو الباحثين عنها وسط البطاطين الزرقاء الناعمة التي التحف بها بعض الركاب.

أضأتُ النور الجانبي الصغير، وأخرجتُ من جيبي بطاقة التذكرة. أخذتُ أتأمل التفاصيل والأرقام الباهتة المطبوعة، قبل أن تستقر عيناي على وجهتي: مطار جون إف. كينيدي في نيويورك.

وضعتُ يدي على جبهتي، وغرقت في دوامة الأفكار.

لسببٍ غامض، صارت نفسي حقلاً بلا انتهاء.

فجأة تدبُّ الحياة في الطائرة، وتضاء الأنوار، ويتحرك في الممر مضيفون ومضيفات، حاملين معهم وجبة الإفطار. تضع المضيفة بابتسامةٍ آلية صينيةً

تضم البيض المخفوق مع شريحة من اللحم، وقطعة توست، وشرائح الخضروات الطازجة، مع زبادي الفواكه.

أبقيتُ الطبق الرئيسي على حاله. لم أكن متأكدة من نوع شريحة اللحم، كما أنني نسيتُ أن أطلب من شركة الطيران وجبة نباتية، تُجنبني أي طعام غير حلال بمقتضى الشريعة الإسلامية.

لم تكن شهيتي مفتوحة.

عقلي كان في مصر.. وقلبي أيضـًا.

زوجي سمير، وابني خالد، كانا هناك، في تلك المدينة الصاخبة التي أنتمي إليها، وإن كنتُ لم آتيها إلا زائرة أو سائحة.

هما أيضـًا كانا مجرد زائرين للقاهرة، رغمـًا عنهما.

أشتاق إلى لثغة الأطفال في فم خالد المليء بالحلوى. جيناته الصغيرة تلعب الكرة وبعضها يحمل الدمى. بيت البسكويت وأبواب ألواح الشوكولاتة. فم صغيري اللذيذ حين يحاول النطق بحروفٍ مرتبكة.

أفض كيس السكر لأضيف قليلاً منه إلى كوب القهوة الذي ملأته لي المضيفة الشقراء الفارعة الطول. تحمل شارة ذهبية كُتب عليها اسمها: أديليدا. بدا الاسم لي ذا أصول بولندية واضحة.

عدتُ إلى دوامة أفكاري.

تحسستُ بطني برفق، كما لو أني أدير حوارًا سريـًا مع جنيني، طفلي الثاني الذي في ظهر الغيب.

أناجيه متسائلة: متى ستركل بطني؟ متى ستمسك إصبعي للمرة الأولى؟ متى ستنام على صدر والدك، لأجده يشير بإصبعه لي كي أخفض صوتي؟

أتذكر الآن نساء العائلة وهن يتغامزن عليّ في طفولتي بسبب لحافتي الشديدة، حتى تُسكتهن جدتي المتمسكة بأصولها ولهجتها الصعيدية الحاسمة، قائلة: "الغزلان ماعتشيلش لحم" و"لحم العصفور مش بالقبّان (الميزان)"

لاح على وجهي طيف ابتسامة، ثم عاودني نمل القلق الذي تسرب إليّ من تحت باب الحياة.

ألقي نظرة من النافذة الصغيرة على الحياة التي تنتظرني هناك، في تلك الأرض البعيدة، التي أقترب منها على متن طائر معدني ضخم.

ساعة يدي نبّهتني إلى التاريخ، وذكّرتني بأنها ليلة رأس السنة.

الليلة يحتفل أكثر من مليار إنسان في العالم ابتهاجـًا، لكن ملايين آخرين كانوا يعيشون كابوس عام ١٩٩٠

"سامحك الله يا صدام"

زفرة الأسى التي شقت صدري، جعلتني أستغرق في شريط أحداث مؤلم بدأ فجر ٢ أغسطس من تلك السنة، حين غزت قوات عراقية بأوامر من صدام حسين أرض الكويت، وقررت احتلال هذا البلد ومحوه من الخارطة!

إنها لحظة الجنون التي أودت بالعرب إلى الجحيم وأخرجتهم من التاريخ، حين انفتح الباب واسعـًا لكي يقتتل العربُ في معركةٍ خرج الجميع منها مهزومين.

ذلك الشتاء البائس واليائس، أعادنا إلى جاهلية داحس والغبراء وحرب البسوس.

كم يجهل القاربُ المَثقُوبُ شكلَ الشاطئ!

تركتُ ورائي بلادًا تعيش أغرب أزمة سياسية في العصر الحديث. زلزالٌ سياسي هز المنطقة من المحيط إلى الخليج، وأحس بالهزات الارتدادية التي نتجتْ عنه الملايين في العالم كله.

كنتُ وعائلتي جزءًا من هذه الملايين التي قوضتْ قوات الغزو عالمها. الكويت، مسقط رأسي، التي ولدتُ فيها ونشأت، وتعلمت، وتفوقت، وتزوجت.

لا أنسى يوم تكريمي لتفوقي في شهادة الثانوية العامة، وحصولي على المركز الأول على مستوى طلبة القسم العلمي في تلك السنة. في القصر المنيف، وقفتُ أمام أمير الكويت الجديد – حينذاك– الذي صافحني ومنحني مبلغ ألف دينار تكريمًا لي على تفوقي. أبي الفخور بابنته النابهة، أو النابغة، كما كان يقول، حضر أيضًا ذلك التكريم، وظل يستعيده معي في مناسباتٍ لاحقة.

أتذكر تصفيفة شعري، وثوبي الرصين، وحذائي الأسود اللماع.

عشتُ حياة عائلية تبتعد عادة عن البكائيات، وتتكئ على صلابة منسيين في أوطانهم، لكنهم محل تقدير خارجها.

كم أنا مريضة بذكريات الطفولة!

أحاول تزجية الوقت بتقليب صفحات مجلة شركة الطيران، فألمح صورًا من أفلام السبعينيات، التي تطغى عليها ألوانٌ فجة فاقعة وديكورات سقيمة الذوق وممثلون ذوو سوالف رجالية كثة وممثلات ذوات شعور نسائية تم صبغها وتشكيلها في هيئات جامدة لا تسمح لشعرة واحدة بالحركة الحرة مع ماكياج صارخ.

أتأمل الصور بحثًا عن عدد من نجومي المفضلين، فأنا من جيل كان يشاهد على الحجار مرتين في يوم واحد على نفس قناة التليفزيون؛ مرة في العصر

مرتديـاً تي شيرت وشورت ونظارة شمسية وهو يغني "يا اسكندرية يا مدوباني"، ومرة أخرى في الفجر مرتديـاً الجلباب والجبة وهو يغني "صلينا الفجر فين"

صوتُ قائد الطائرة يأتي كما لو أنه قادمٌ من بطن الحوت. كانت إشارة كافية لي كي أدرك أننا هبطنا بسلام.

أخرج من أحد الأبواب إلى مبنى آخر؛ لأستقل طائرة أخرى متجهة إلى مطار نيوآرك في نيو جيرزي. الأضواء المتلألئة والأجواء الاحتفالية تملأ أرجاء المكان. الأحمر والأخضر سيدا الألوان في المطار، وسط بقايا زينة أعياد الميلاد.

في هذه الليلة يتحد البشر في سرقة الفرح تارة بين النجوم وأخرى بين قطرات المطر الذي يتهجى الأرض. تزدحم الطُرُقات بالبشر القادمين، وتلتحم الأجساد، فالفرح مُعدٍ كالحزن أيضـاً. تتنافس الفنادق والأحياء في الألعاب النارية.

وسط أجواء الاحتفالات، تبدو النجوم أكثر من مجرَّد يراعاتٍ مُضيئةٍ فوق رؤوسنا. إنها كرنفال في السماء.

برغم ملامح الإرهاق البادية على وجهي، وجدتني أبتسم، وأنا أحادث نفسي قائلة: "كل هذا احتفالاً بقدومي؟"

عندما تسقط الورقة الأخيرة من السنة، يرسل البعض الأماني. أمنيتي الوحيدة للعام الجديد هي أن أكون وعائلتي في حال أفضل. ربما أضيف إليها أمنية عامة هي أن تتوقف آلات الحقد والقتل والسجن والتعذيب في بلادي، فالبهجة والدم لا يجتمعان.

كم يختلف هذا المطار عن المطارات التي تركتُها في بلادٍ مُتعَبةٍ جراء ظروف الفقر أو الحرب!

لم أكن مُثقلة بمثل هذا التعب من قبل.

رغم ذلك الوجع المؤلم حد الخدر، تبقى هناك مساحة للأمل.

أقف في الطابور قابضة على جمرة خضراء اللون اسمها جواز سفري. ربما كانت المرة الأولى التي أنتبه فيها إلى حجم جواز السفر المصري مقارنة بجوازات سفر الدول الأخرى. لا تخطئ العين تمييز جواز السفر المصري بحجمه الذي يتجاوز راحة اليد.

موظف الجوازات لم ينطق حرفـًا رغم تحية المساء التي ألقيتها عليه، لا يهم، كلّ موظّفي الجوازات هكذا.

الأسئلة التي وجهها إليّ موظف الجوازات، دارت حول الغرض من الزيارة وعنوان الإقامة وتفاصيل أخرى؛ أجبتُ عليها بوجهٍ محايد، في محاولةٍ مني لإخفاء الإرهاق البدني والعصبي الذي يجتاح خلاياي. أخيرًا هبط ختمُ الدخول بضربةٍ سريعة ورشيقة على ورقة سميكة من أوراق جواز السفر؛ بطاقة دخول هذا العالم الجديد الغامض.

تحاملتُ على نفسي، وأسرعتُ الخطى للحاق بالطائرة المتجهة إلى نيو جيرزي، وشكرتُ الراكب اللبناني الذي دفع حقيبتيّ. معظم الركاب لن يستلموا أمتعتهم حتى محطة الوصول الأخيرة. أما أنا فلا أتذكر سببـًا وراء إغفالي مثل هذه الترتيبات المهمة. ها أنا أضطر إلى دفع حقيبتيّ إلى مبنى مجاور. الراكب اللبناني يحكي لي بألفةٍ شديدة عن الولاية وناسها وشواطئها الخلابة.

لم ألتقط الكثير من التفاصيل التي سردها لي. كان كل همي في تلك اللحظة هو أن أتعرف إلى العائلة اللبنانية من أصل كردي التي ستكون في استقبالي في المطار.

أشرف، زميلي وصديق زوجي، هو الذي رتب تفاصيل الزيارة، لكنه سيكون مناوبـًا، وبالتالي طلب من صديقه حسين أن يكون في انتظاري في المطار. عبر في خاطري لوهلة تساؤل غريب: هل حسين سني أم شيعي؟ في زمن تال، لن تعني هذه الاختلافات لي الكثير، لكن أيامها كانت هوية من أمامي مقياسـًا مُهمـًا للثقة والطُّمَأنينَة.

لم أفهم أن هناك سُنة وشيعة إلا عندما علمنا أن الشاه سقط وهرب ولجأ، وأن الملالي الجدد في إيران منعوا الحفلات والاحتفالات، وألزموا الفتيات بارتداء الحجاب والشادور. حتى، فاريبا، أخت جارنا مسعود، ارتدتْ واحدًا فضفاضـًا مثله، ولم تعد ترد علينا التحية عندما نلتقي مصادفة، مع أننا نشأنا سويـًا وكنا نلعب عند مدخل العمارة ونحن صغار.

حين انفتح الباب الإلكتروني أمامي، هبّت عليَّ نسمة هواء غامضة.

جمدتُ في مكاني للحظات. القَدَمُ التي تخطو بيقين، ترتبِكُ عادةً عند مُفتَرَقِ الطُّرُق.

أبحث عن الوجه الذي أخبروني أنه سيحمل اسمي على لوحة صغيرة. ها! أخيرًا شخص ما يبتسم في هذه البلاد!

استقبلني حسين بحفاوة وتهذيب، وساعدني على تلمس خطواتي في البلد الجديد. رجلٌ في الخمسينيات من العمر، أنيق الملبس، بصلعةٍ فائقة اللمعان وعينين نافذتين. انطلقنا في سيارته، التي اندفعت تحت جنح ليلٍ تُزينه النجوم. لم أمنع نفسي عن سؤاله عن الأمور الغامضة التي تنتظرني، فكانت إجاباته مطمئنة إلى حدٍ كبير. في الحقيقة، لم يتحدث حسين كثيرًا خلال الرحلة. تركني أكتشفُ المدينة على هواي.

"كيف كانت رحلتكِ؟"

أصحح وضع النظارة على عيني، وأجيبه بفائض من الكلمات.

"لستُ مُتعَبة. قد أكون مُرهَقة ذهنيـــاً، لكنني سعيدة بقدومي إلى هنا"

حين التقيتُ مع أشرف، وجدتُه أكثر تفاؤلاً مني بمستقبلي في هذه التجربة، التي لم أكن أدري هل ستكون غربة مؤقتة أم هجرة دائمة. اكتشفتُ على مر الأيام أنه يتمتع بذكاء فريد وفراسة.

في اليوم التالي لوصولي، أقلني أشرف إلى الجامعة، ثم إلى المستشفى التابع لها، وأخذ يُطلعني على تفاصيل مهمة بشأن من سألتقي بهم وتوقعاتهم مني كطبيبة وافدة من أقاصي الدنيا إلى هذا العالم الرحيب.

نجحتُ في المقابلة والاختبارات التالية، وتم التعاقد معي. أخيرًا!

على هذي الأرض مساحة لعشبة الأمل كي تنمو باخضرار العزم. على هذه التربة رملٌ كثير يغزل كثبان يأسٍ نقاومه.

بقيتْ مهمة أخرى لا تقل أهمية.

أذهب إلى رئيس المستشفى الجامعي، جورج فالنتيني، وبطني تتدلى أمامي. أقدم له أوراق زوجي وشهاداته المعتمدة، وأقول له إن زوجي سمير طبيبٌ كفء وناجح، وأجرى الكثير من جراحات القلب الناجحة.

حمدتُ الله على أنه لا يقرأ الأفكار، وإلا كان قد عرفَ أني أوَدُّ التعليق على لون قميصه الأصفر وضيق سترته بالنظر إلى جسمه الممتلئ.

أنجح بعد أسبوعين في إقناعه بإجراء مقابلة توظيف له على الهاتف بحضور لجنة متخصصة. يبلغني د. فالنتيني بالخبر السعيد، وموافقة الإدارة على التعاقد مع سمير. يتهلل وجهي فرحـــاً وأختم لقائي معه بابتسامة وجملة مختصرة: لن تندم على ذلك!

مضاءُ الأمور، للمصرِّين عليها.

يضحكُ زوجي من قلبه حينما أطلب منه أن يُحضر لي قرص "مشبّك" دمياطي، حلواي المفضلة. يقول لي: عندك المافن والوافل، وتطلبين قرص "مشبّك"!

أقول له معاتبة: ربما يساعدني هذا على نسيان أنك أغلقتَ قميصك على قلبك أكثر من خمسة أيام دون أن تحاول الاتصال بي هاتفيـًا!

- "حاضر، حاضر، يا سارة، سأحضر المطلوب"!

أحسّ بأنه سيخسر المواجهة، فتراجع.

سمير، واقعي وجاد، ربما أكثر من اللازم.

نحيل، هادئ الانفعالات، شفاف الوجه، تقرأ أحاسيسه بوضوح على ملامحه. بابتسامة صغيرة يعبر عن رضائه وسعادته. بتقطيبة خفيفة بين حاجبيه يتبدى ضيقه واعتراضه. نظارته، دقيقة الزجاج، لا تُخفي عينيه اللتين تنطقان بالمعاني قبل الكلمات. لا يتحدث قبل أن تتبلور الفكرة في عقله تمامـًا، وبالتالي، يصوغ وجهة نظره على نحو محدد.

يمتلك وقفة راهبٍ ونظرة طفل. أناقته صارمة، تنتمي إلى طبقة الأرستقراطيين في زمن مضى.

كم أتمنى لو أنه يمنحني مزيدًا من الرومانسية، كأن يعود يومـًا ليمنحني قبلة خاطفة وضمة عفيّة.

مشرطُ الجرّاح الذي يتعامل به مع مرضاه في غرفة الجراحة، يبقى في عقله خارجها. كان هذا سببـًا في بعض خلافاتنا، التي تجاوزتُ عنها طويلاً. تلك المشارط الناعمة قد تجرحُ الحياة نفسها.

هناك صنفٌ من الناس يتحفظ على كل شيء جميل في الحياة؛ الضحك، المرح، الكلام، الموسيقى، الإيماءة المعبرة. ديدنُهم: العبوس المقدس!

تعيش في قطعة من الجحيم. حين يُشقيك القدر بإنسانٍ به من الطيبة بقدر ما به من الحماقة. يساندك، ويمنحك ما يفوق توقعاتك أحيانـًا، ويؤذيك، ويخذلك في أحيان أخرى، فتحيا معلقـــًا بين المحبة وتاريخ العلاقة الجميل، وبين أشواك تنمو في الروح كل يوم!

الصدوع سببها الصمت أو الاحتجاج المتأخر علينا أن نقاوم مبكرًا كل ما يجعل الروح تتآكل. الصمت عاصفة مدمرة، لا تسمع لها حسـًا، لكنها تخرب قفص الروح؛ إذ تجعل منه زنزانة.

العلاقة المسكونة بالخرس، سترة نجاة مثقوبة، يتسرب إليها اليأس والخذلان، وتستدرجنا بالخديعة وترقيع العلاقة للحظة الغرق.

قال لي ذاتَ مرة: أعضاء نادي جراحة القلب المفتوح ينسون أنهم حصلوا على حياة إضافية، ويروون للآخرين بحسرة عن كشف الممنوعات المطلوب منهم تفاديها لنهاية العمر، وأولها جميع أنواع الجبن إلا "القريش" منه، والسجائر والسهر والإجهاد والتفكير. والتكدير والمرور من خلال البوابات الإلكترونية.. إلخ.

أضفتُ قائلة: المهم ألا يفقدوا معنى خفقات قلوبهم، مثل الجرّاحين، فهذا هو الموت بعينه.

تعلمتُ مرارًا أن الحقيقة مزعجة. وفي كل مرة أخطئ، فأقولها!

يرد كما لو أنه فوجئ بكلامي: أنا؟ تقصدينني أنا؟

ابتسم، فتصله الإجابة.

يغضب، فيغادر الغرفة.

الشعور بالغضب كالشعور بالمرارة؛ كلاهما يلتهمان آخر قطرة من حماسنا حين نثق في قدرتنا على التغيير، لكننا ننسى أن نتغير أولاً

الأسوأ من ذلك أنه تعمد تجاهلي، ولم يحاول طي صفحة الخلاف العابر بيننا. عدتُ من المستشفى، لأجده ممددًا بملابسه، وهو يُنصِتُ إلى موسيقى "العرّاب"، كأنه يسترخي في الندم.

يشحبُ وجهه المسحوب بمغناطيس العَدَم.

أرتدي له قميص نومه المفضل؛ يشف التفاصيل كجسد قنديل البحر، هو والماء سواء. أحاول ردم الهوة بيننا، وأن أُهيئ له لقاءً يشعل جذوة الشوق بيننا. أفترض أن نتوءات الجسد ورائحة العطر وحنو الصوت، سببٌ كاف لإثارة فضول القُبل المتطفلة، لكنه يتجاهلني ببرود. أحدثه بلين، وأعاتبه برفق، إلا أنه يبقى على تحفظه ومقاطعته لي.

الجفاء يدٌ مدنسة. لا جدوى من حربٍ مع الصمت، أعلمُ أني مهزومة فيها سلفـاً.

عندما دخلتُ غرفة النوم، كرّت في مخيلتي صورٌ، حتى اغرورقتْ عيناي بالدموع. الحزن وشمٌ يحني ظهر الأفق. أقبعُ في زاوية الغرفة، وفوق رأسي خبزٌ مسموم، يأكلُ الطير مِنه.

تقع عيناي على الغلاف النائم على الطاولة الصغيرة بجوار السرير. رواية فرجينيا وولف .Between the Acts

أنخرط في البكاء وأحدِثُ نفسي قائلة: وأنا يا فرجينيا وولف أنتظر أن تصير هذه الحجارة دموعـاً، أو أن تصير الدموع حجارة، بما يكفي لأنجو، أو بما يكفي للغرق.

أدخلُ في مزاج سيء يمكنني معه إحراقُ مدينةٍ كاملة بمشرديها ومترفيها وعشاقها وقديسيها ومجرميها وشيوخها وملحديها؛يمكنني إحراقها بينما أعزف.

أغمضُ عينيّ وأثني وسادتي، تلك التي كانت دومـًا رصيف يديه. أنامُ على قلق، مثل غصة مصلوبة في حنجرة الليل.

في الحلم، كنتُ أركض وفجأة توقف الطريق وتغير الاتجاه!

بحرٌ في فمي، وأنا أرى غرقي الأكيد.

الليل ثقيل، كأن سواده هو عتمة في الصدور الحزينة. الصباح سيئ، ينبهك من نومك، ذلك الموت المؤقت الذي يحميك من حياة الشقاء.

أستيقظ وأنا مرهقة. رأسي يشبه مدينة ألعاب صاخبة. تطاردني بقايا حلم مُضن ومُذل.

أحاول أن أستردّ وجهي من النعاس، فأرى في انعكاس المرآة وجهي الذي عبث به الحزن. أبدو مُتورمة كجفون سماء محقونة بالمطر، مُتشققة كأرض أرهقها العطش.

يُعطيني هذا الصباح انطباع التأرجح؛ يكون شديد الصعوبة ويرتبّك فيّ كلّ شيء.

فجأة دخل عليّ سمير وفي يده صينية لإفطار شهيّ أعده لي خصيصـًا، وعلى وجهه ابتسامة اعتذار.

"صباح الخير يا مولايّ"

لم أرد. كنتُ جد غاضبة منه. لم أفعل شيئـًا غير الغرق في صمت باهت.

قال لي بلهجةٍ اعتذارية: في طفولتي كنتُ أتعثرُ في اليوم الواحد ألفَ مرّةٍ. حتى في سيري، كنتُ أتعثر في حصاةٍ صغيرة أو بلاطةٍ مرتفعة، أو أسقط من

فوق دراجتي الهوائية الصغيرة. ليلة أمس، تعثرتُ مجددًا، وها أنا أقف أمامكِ لأقول بصدق: سامحيني.

كيف لا أسامح هذا الطفل الكبير؟!

يميل به الاعتذار جهة فمي. أرتدي الخجل، فيحتضنني ويداوي جروحي.

أكاد أضيء. وحدها الأنوثة تضيء عتمة الفراغ.

(٢)

كان أبي يصارع الموت وشياطين الهزيمة حين جئتُ إلى الدنيا؛ كان هذا سببًا كافيًا لكي يصبح اسمي محاولةً للإفلات من الأحزان: فرح.

ظل أبي يحلم بالحصول على كُلية جديدة لكي يستمر في الحياة. بعد إلغاء وحدة غسل الكُلى في بلدتنا انتقل إلى مستشفى خاص في العاصمة، لكن النفقات باهظة وهو غير قادر على الصمود في انتظار متطوع لا يأتي، كي يمنحه كُلية وشوطًا إضافيًا في هذه الحياة. هكذا قرر أن يعتزل وأن ينسحب إلى الأرض.

اختطفه الموت الذي لا يأبه لتوسلاتنا.

الموتُ لا يستأذن، إنه صاحبُ البيت، الذي يجرؤ على زيارتنا بدون مواعيد، ويعطي نفسه حق البكاء حتى في أوقات السعادة.

كانت الصدمة قوية على أُمّي.

كانت في كل جمعة تنتظر أن تُبخّره قبل ذهابه للمسجد. تُحصنه بالأذكار لأنه لها. وتجتهد في الدعاء المعطر لله كي يحفظه لنا، وتشكر المولى كثيرًا عليه.

تمرر يديها على كتفيه. تستشعر قامته وسط رائحة البخور حين تلتوي زخرفة دخان مع خصلة شعرها خلف الأذن.

المرض زلزل كل هذا بلمح البصر.

تزعج أُمّي من قروح الفراش المتزايدة في ظهر الزوج العليل، لكنه تنظف فراشه، وتمسح على جسده، وتُعينه حتى على قضاء حاجته إن لزم الأمر

ها هو مُسجّى على فراش الموت.

تركتُ نعيه للقادرين من النُعاة، واختبأتُ مثل نقطةٍ صغيرة خلف نعشه. رُسُلُ الموت يخرجون من الكمائن، يقطعون الطريق، ويملؤون الأفق.

أتذكر حين كنا نذهب في الأعياد والمواسم لزيارته، حاملين الريحان والزهور البلدي. نمسح بأيدينا على شاهد القبر، في حين تردد الأم دعاءً لزوجها الراحل، وهي تلمس بين الفينة والأخرى خاتم العرس الذي ظلت تحتفظ به في إصبعها.

أجمل الأيدي تلك التي تمسح الغبار عن الأضرحة؛ أقواها تلك التي تنجو من المذبحة؛ أطهرها تلك التي تلوح حين الوداع بحرير الأوشحة.

وبعض الوداع مماتٌ يتجاوز تخوم المجاز.

تبدو الخضرة في المقبرة كما لو أنها أرواح الموتى، تعرّش فوق تربتهم، وتربت على أكتافهم في حنو، في حين تحلق طيور مهاجرة فوق ضفة النهر الذي يسرقُ خطواتِه للأمام.

وحدها، ورد المقابر، لا تستهوي القاطفين.

أسأل أُمّي: أين أبي؟

ترد فيما تتحجر على خدها دمعة عصيّة:

- أبوكِ مات.

- مات؟

- يعني "ورقته وقعت". سقطتْ ورقته من "شجرة الحياة".

تبدو على وجهي حيرة أكبر من ذي قبل؛ كيف وقعت ورقة أبي؟ ومن أين؟

دون أن تنتظر مني سؤالاً جديدًا، تفسر لي أُمّي كلامها، وهي تلف "البردة" الصعيدية فوق جلبابها الأسود:

"عندما خلق الله الدنيا، أوجد في السماء شجرة عملاقة، سجل على أوراقها الكثيرة أسماء كل البشر من بدء الخليقة لنهايتها، وأجلّ كل منهم. كل صباح يأمر ملكَ الموت عزرائيل بأن يهز الشجرة، لتسقط أوراق من انتهى أجلهم في هذا اليوم"

تخرج أُمّي، فتنمو في ساحات خيالي الطفولي، ومنها لساحة الدار الفسيحة، شجرة عملاقة، أسجل عليها كل الأسماء، إلا اسمي وأسماء أفراد عائلتي ومن أحِبُّ، وأصعد الشجرة، أهز الأغصان فأُسقِط ما أشاء من أوراق.

ظللتُ لسنواتٍ مقتنعة أن أبي نائمٌ.. مجرد نائم في موتِه.

في بلدتنا الريفية، عرفتُ معنى القلق وقلة النوم وما يترتب عليها من تعب وإرهاق. ليس هناك أصعب من النوم في حجرة جدرانها وأرضيتها مطلية بالطين، الذي ما إن يجف حتى يتشقق، لتصبح الشقوق ملاذًا لما يسميه الدراويش "حشرات الصالحين"، أي البراغيث والبق، وسُميت بذلك الاسم؛ لأنها تحرم الإنسان من النوم فيضطر إلى إحياء ليله بالتعبد صلاةً وتسبيحـًا.

في بلدتنا، يكون تسلسلُ الليل كالتالي: من الثانية صباحـًا وحتى الرابعة صباحـًا كلاب تنبح وتطارد شياطينها الخفية.. من الرابعة إلى الخامسة استراحة قصيرة.. من الخامسة إلى السابعة عصافير تزقزق.. ومن السابعة صباحـًا حتى نهاية الليل، بشرٌ يمارسون لعبة الغابة باقتدار، من افتراس

الضعفاء بلا هوادة وتبادل السباب والألفاظ النابية، مع ضحكات متقطعة على نكتةٍ خارجة أو مقلب ساخن تعرض له أحدهم.

تألف أذناي صوتَ صاحب المقهى العتيق على ناصية شارعنا، وهو يتوعد عامله الستيني بأن يشنقه معلقـًا إياه ليس من رقبته المتغضنة إنما من أرنبة أنفه. يضحك رواد المقهى، ممن أدمنوا رفيقيّ السهر: الشاي الأسود الثقيل والتبغ الذي تهيمن رائحته على المكان.

بالقرب من بيتنا، ساحةٌ يتجمع فيها أولاد الحي كي يلعبوا كرة القدم ويركلوا الليل. بينما الفتيات الصغيرات يعقدن الشرائط على رؤوس دُميً محشوة بقطن رديء، خاطتها لهن أمهاتٌ كادحات أو مسكونات بالأسى.

يصحو المرء في ريفنا قبيل أذان الفجر، فإذا صلى وغيّر ريقه بالمتاح من طعام، توكل على العاطي الرزاق، واتجه إلى مهمته التي قد تكون "تطليع الزريبة"؛ أي حفرها طبقة من تحت أخرى حتى يصل إلى منسوبها الأصلي، وهو منسوب الحارة أو الطريق، وهي مهمة ليست سهلة بحال من الأحوال؛ لأنك بصدد خليط من الردم وروث وبول المواشي وبقايا تبن وبرسيم، وكلها مدكوكة بفعل ثقل الثيران وفحول الجاموس وإناث البقر والجاموس، وكذلك الحمير والجمال الواقفة عليها أيامـًا طويلة.

تنزل الفأس بقوة القامة المحنية لتخرط الخليط، ثم تنقله السواعد، تساعدها منطقة أعلى الركبة في مقاطف مصنوعة إما من الخوص المجدول أو "الكاوتش" الأسود السميك، إلى ظهور الحمير الواقفة أو الجمال البارکة؛ ثم تُساق الدابة بحمولتها إلى الحقل، حيث يتم قلب النقلات نقلة بجوار الأخرى حتى تنتهي العملية، وتبدأ بعدها عمليات أخرى في مواعيد تالية.

وربما تكون المهمة مختلفة في الصباح ما قبل الباكر، كمهمة تشغيل الساقية أو الطنبور أو مهمة شتل الأرز، وهي بالغة الصعوبة؛ لأنك تبدأ بإغراق الأرض الزراعية بالمياه التي قد تعلو إلى ما قبيل نصف ساقك، ثم تربط الزحافة في الحبال الطويلة لتصل إلى الناف "النير"، المربوط فوق أعناق البهيمتين. يقف الفلاح مرتديـاً قميص "دمور" قصير فوق الزحافة وبيده "الفرقلة" – أي السوط– لينادي بهائمه للانطلاق، وهي تجر سيقانها وثقل الزحافة، التي هي كتلة خشبية ضخمة لها حلقتان حديديتان في الطرفين الأماميين، ومن فوقها ثقله وثقل زميله الذي يوازنه في الجانب الآخر، وهذا كله بهدف تسوية الأرض قبل الشتل.

ويبدأ الشتل من صفٍ طويل من الرجال والنساء المحنيين المشمرين عن سيقانهم، وإلى جوارهم نباتات الأرز النامية قليلاً، ويأخذون منها عودًا أو عودين أو ثلاثة لغرسها في الطين.

وربما تكون مهمة الصباح الباكر، هي ضرب الطوب اللبن، حيث الخلطة في المعجنة، وفيها يختلط الردم بالتبن بالروث، ثم يُنقل على خوص النخيل المجدول على هيئة طبق عريض دائري، له آذان مصنوعة من الليف الأحمر الخشن، ثم تنتقل العجينة إلى قوالب خشبية مفرغة لها يد طويلة نسبيـاً، وما إن تُسوى العجينة داخلها حتى يُنزع القالب الخشبي وتُترك لتجف تحت الشمس، وكل فترة يأتي من يقلبها على وجهها وجنبيها الآخرين.. وإذا أرادها الفلاح ليبني بها أخذها بعد أن تجف، أو حوّلها إلى طوب أحمر برص القوالب بطريقة فنية لتقيم قمينة بداخلها ممرات يُلقى فيها الفحم الحجري، وبعدها يتم الإشعال لتبقى مشتعلة أشهرًا ويتحول الطوب اللبن إلى طوب أحمر صلد، وأحيانـاً يحترق بعض الطوب لدرجة الانصهار فيأتي منه "الحجر الخفاف"، الذي يستخدم لتنعيم جلد القدمين.

حياة الكد والمشقة هي عنوان بلدتنا ذات البيوت المتداعية، الضيقة، الخانقة، المتساندة إلى بعضها بعضـًا، تمامـًا مثل قاطنيها؛ يعيشون سويـًا، بلا خصوصية ولا أسرار.

قضبان النوافذ المجروحة بالضوء توحي بالقيود، لكن الشبابيك التي تطل على بعضها بعضـًا في قريتنا تعني انكشاف الأسرار. الكل يعرفُ كل شيء عن الآخرين.

من تلك الشبابيك يمكنك أن تراقب النسوة وهن يغسلن عتبات البيوت، ويفركن الأفنية المتسخة، وينشرن الملابس والملاءات التي اجتهدن في غسلها يدويـًا.

هنا تعوي الرِّيحُ وهي تمر على عتبةٍ لطالما جلس عليها الفقر والشتاء وعجائز يائسات. يا لحنجرة الهواء!

وحده زمن الطفولة يبقى في الذاكرة.

في الضحى، أصعد السلم الخشبي ممسكـًا بطرف جلباب جديّ فاطمة إلى سطح الطابق الثالث من البيت. جديّ عجوز قوية الشكيمة، بدينة، راسخة البنيان. جلبابها الواسع، القديم، يوحي بأنه لم يفارق جسمها طوال أعوام. تعصب رأسها بمنديل، فوقه طرحة. ملابسها كلها سوداء. تملأ فمها بالدعاء وبالشتائم، على حد سواء.

تسحب الجدة من "دمس الفرن" إناء معدنيا مليئـًا بالبيض، تقشره بأظفارها الأقرب إلى مخالب الطيور، وتعطيني صفاره مع الخبز الطازج، وتُلقي ببياضه للديكة الرومية. أنصرف لمشاهدة صفحة النيل الزرقاء الصافية من حافة سور السطح القصير، وأتأملُ الدودَ الذي طردته أمُّه التربة، في حين تمش

جدتي عني الديوك الرومية، تلك الكائنات التي كنت أراها عمالقة خرافية، وأخاف اقترابها مني.

كانت جدتي رحمها الله حين تروي لنا قصة عن ملك، فإن لغة الخطاب له كانت (يا ملك الزمان). لم أكن أعرف حينها لقبـًا غير هذا للملك؛ إنه ملك الزمان فحسب، ولم أكن أعلم حين كبرت متى سيظهر ملك الزمان، ولا ما إذا كان حقيقيـًا أم مجرد أسطورة أو خرافة.

ومن لطائف ذاك الزمن البعيد، أن أُمّي، حفيدة العالِم الأزهري، لم تكن تجد غضاضة في أن تلتمس هُدنة روعي من "خضة الكلب" لدي القس في كنيسة بلدتنا الوحيدة، وأن يباركني برش الماء "المبارك" على وجهي، ولا من مشاركتنا لجيراننا الأقباط في احتفالات عيد "السعف" ولا في أن تحممني بالماء البارد في "عيد الغطاس"

أتذكر جيدًا ذلك اليوم. كنتُ في الصف الثاني من الرحلة الابتدائية. ما إن دخلتُ بيتنا حتى ألقيتُ بحقيبة الكتب المدرسية المصنوعة من القماش، وأخذت أركل ما أراه أمامي وأغمغم بكلماتٍ غير مفهومة. جاءتني أُمّي لتهدئ من روعي، وسألتني: ما بكِ يا فرح؟ أخذتُ أبكي وأتعثر في الكلام، حتى هدأتُ وقلت لها: صاحباتي لا يحببني. لمست الثؤلول الصغير الذي يشبه حبة الزيتون في ذقنها؛ ثم ردت بحسم: في داهية.. ابحثي لنفسكِ عن صديقاتٍ غيرهن.

من يومها وأنا أبحث عن صديقاتٍ غيرهن.

كفلنا خالي فتحي حتى بلغنا سن المراهقة. رأيتُ منه ما جعلني أؤمن حقـًا بأن الخال والد. عطفٌ وحنانٌ وكرمٌ وحُسن توجيه. فلاحٌ أصيل، يقيسُ الوقتَ بِمِزْولةِ الشَّمْسِ.

كلما دقتْ عصا خفيفة باب البيت الموارب، عرفنا أنه هو، يستأذن في الدخول. تفض أُمِّي يدها عن أي شيء آخر، وتحمل عنه ما يأتينا به من خيرات: خضروات ولحوم وأرز وسمن وسكر وتمور. النخلاتُ المرويات بعرقِه، تثمر حبات تمر شهية، مملوءة بالرضا.

كنتُ أراه أحيانـًا وهو يقصد المسجد فجرًا، والرِّيحُ تستغفر على كتفيه. أبصِرُه كشَجرٍ يمشي، بجلبابه الذي تتوزع فيه ثقوب الضوء والظلام، وهو يُسبح ويحمد ويحوقل. يئز حذاؤه كلما لامس الأرض، وهو يردِّدُ بصوتٍ يليق بغبش الفجر "يا رب"، فينفض عن أرواح من يسمعونه ذرات غبار اليأس.

كلما زرتُ في المساء بيْته القريب من مترلنا، وجدتُه جالسـًا في الفناء بوجهه اللطيف كامل الاستدارة، وقد شبك ساقيه ووضع فوق ركبتيه مصحفـًا ضخمـًا، واستغرق في تلاوة ما تيسر من آي الذكر الحكيم، وهو يهتز إلى الأمام والخلف. تجلس روحه على الأرض كالتهجد، ويصفو ذهنه مثل ماء يتوهج تحت الشمس.

سألته ذات يوم ببراءة:

– كم الساعة الآن يا خال؟

– الساعة معطلة من زمان. ربما الساعة نفسها كرهتْ تلاعبنا بالتوقيت. صيفي.. شتوي.. صيفي.

ربما لم أفهم مغزى كلماته وقتها، لكنني التقطت بكل تأكيد نبرة صوتِه الحزينة.

فجأة، خذله قلبه فمات. عاش في الدنيا بلا صخب ورحل عنها بلا ضجيج. كأنما الحياة تقصقص أجنحتنا بتغييب عطر النبلاء عن أيامنا.

الموت يعشق مباغتة من هُم في وسط الحياة.

حملَ النعشَ ضعفاء طيبون، ونصلُ الحُزنِ يخترقهم جميعـًا. رفعوه عاليـًا في وجه شمسٍ تفتح لها في الرؤوس بيوتـًا. سيتمدد الطريق قليلاً كي يفسح لجموع المُعَزِّين مكانـًا في وداع خالي فتحي.

ثلاثة أيام قضيتها في مساعدة زوجة خالي في خدمة الوافدين إلى سرادق العزاء المشحون بطاقات الحزن والشجن، كنتُ ألمح فيها وجوهـًا تتكرر كل يوم، بعضها لم أكن أعرفه، لكنه كان مواظبـًا على الحضور كأي فرد من أفراد أسرته. علمتُ حينها أنني لستُ الوحيدة التي تعرف عظمة هذا الرجل قوي الشكيمة الذي صنع لأولاده مستقبلهم بكد يمينه وعرق جبينه. لم يترك عملاً شريفـًا إلا وأقبل عليه حتى يُجنب أولاده ذُل السؤال. تراه في الأرض فلاحـًا، وفي مواسم جني المحصول عاملاً، وفي أعمال البناء شديد البأس، وكأن فأسه تركت في كل ركن أثرًا.

يروي الأرض بأناةٍ وصبر، ويُدوّنُ حكاياتِ العَطشِ، ويرفع رأسه بين الحين والآخر باتجاه الشمس وسقف السماء، في مناجاةٍ لا أدري كنهها.

يصمد في وجه عواصف الحياة، كما لو أنه مقاتلٌ بُترتْ ساقه في الحرب، لكنه واصل القتال على ساقه الوحيدة المتبقية.

ما شاهدتُه في أيام العزاء، لم يكن مجرد حالة وفاة، بل كانت بحق حالة وفاء. تلمح ذلك في عيون المعزين من كل من عرف هذا الرجل البسيط في سلوكه العظيم في خلقه، الكريم في أهله، المحبوب في محيطه، العملاق في تربيته لأنجاله؛ إنه حقـًا رجلٌ يستحق الوفاء.

ليتني أمنَحُ المُعَزِينَ شايًا مُحلى بملعقة عسل وأُنحي القهوةَ المُرّةَ جانبـًا. أظن خالي كان سيحِبُّ فكرة العسل ومذاقه في عزائه.

لا أعرفُ عن الطفولةِ سوى أنّها خوفٌ مُضيءٌ. خوفٌ من الموت، ومن العوز، ومن المستقبل الغامض.

حياة الريف على بساطتها، صعبة وقاسية، إلا من نفحات عابرة، كتلك التي كانت تهب على قريتي عندما كنت أستمع مع أهلها إلى الشيخ محمود النادي، أشهر مداحي الناحية.

كنتُ أصادفه وأنا في رفقة خالي مارين إلى الغيطان أو عائدين منها؛ مسترخيـاً قرب ماكينة الري الخاصة به أو محتميـاً بشجرةٍ عجوز تظلل عليه؛ مرتديـاً جلبابه الصعيدي المبقع بالسولار أو زيت تشحيم الماكينة؛ حاسر الرأس، يتدلى شعره الفضي على جبهته المجعدة اليابسة الجلد. يرحب بأبي ويعد له الشاي؛ ويأتي لي بحفنة تمر؛ أو حبات من التين يقطفها على عجل من أشجاره؛ قبل أن ينهمك الاثنان في حديثٍ لا أفهمه.

حين يبدأ الإنشاد والغناء، تسكن نفوس الحاضرين، فيما يقف بجواره اثنان، يعزف أحدهما على الربابة، ويستغرق الثاني في العزف على الناي.

الربابة شجن الريف والتاريخ، والناي محاولة لاستثمار طيش الريح، في خلق الوقار.

في يوم الثلاثاء؛ ثاني أعظم أيام الأسبوع؛ بعد يوم الجمعة، يردفني الخال أنا وأخي حسان خلفه على الحمار ونحن نصف مغمضي الأعين. نتشبث بأيدينا الصغيرة، أنا بوسط حسان، والأخير بوسط خالي؛ ونتكئ برأسينا المثقلين ببقايا نعاس على ظهر الدابة. نقطع شوارع البلدة؛ ومن بعدها بقايا المنطقة الأثرية القديمة وصولاً إلى السوق. ساحة واسعة محاطة من ثلاثة جوانب بأعمدة معدنية تنتهي بأطراف مدببة؛ وتربطها بالعرض صفائح من نفس المعدن؛ تاركة مسافة صغيرة تكفي بالكاد لمرور شخص نحيل بجانب جسده. أما الجزء الجنوبي من

السوق فمكون من قسمين أحدهما مشيد بالحجر؛ يعلوه سقف محدب مزين بالقرميد الأحمر؛ والثاني ساحة مسيجة بأعمدة خشبية عالية؛ وسقف خشبي يعلوه نفس القرميد. يربط خالي الحمار بحبل إلى الأعمدة الحديدية؛ ويقيد ساقيه بحبل آخر.

يغيب الخال قليلاً؛ قبل أن يأتينا برغيفين من الخبز الساخن تعلوهما حبات من الطعمية. ثم يدخل للسوق؛ يغيب قليلاً ويعود بحزمة من البرسيم للحمار؛ وربطة من الجزر الأحمر "الحلو" لنا. ثم يدخل السوق ويغيب عن ناظرينا وسط الزحام. يُلقي حسان للحمار بوريقات الجزر الخضراء؛ ونقضم معـًا الجذور على مهل. كنا طفلين مطيعين؛ لم نفكر أبدًا في اجتياز السور المعدني؛ فالسوق بالنسبة لنا مكان مزدحم جدًا وللكبار فقط. نفترش الأرض في انتظار طويل؛ لا نعرف إن كنا نحن من يحرس الحمار أم العكس.

عند انتصافِ الشمس في أفق الهجير، نتجادل حول ما إذا كانت الطريق المعبدة للقرية قد غمرها الماء أم أنها مطليّةٌ بلمعةِ السراب.

قبل أن يتوسط قرصُ الشمس كبد السماء؛ يعود الخال ليجدنا كما تركنا آمنين. بعد رحيل خالي؛ توقفنا عن ارتياد السوق بعدها. في أعوام لاحقة، ستتحول تلك الساحة المتربة المحيطة بالسوق إلى ملعب البلدة الرسمي؛ قبل أن يكون لها بعد سنوات أخرى ملعب عشب، تحوطه مصاطب إسمنتية للجمهور؛ وملعبان فرعيان للتدريب؛ لكنني كنتُ حينها قد تركت كل شيء خلفي؛ السوق والملعب والبلدة؛ في رحلة غياب طويلة.

لسببٍ لا أعرفه؛ كان مدرس مادة العلوم في المرحلة الإعدادية؛ ينصرف عن شرحِ دروس مادته، ويحدثنا عن عذاب القبر، ويوم القيامة، وعبور الصراط. كانت فرائصي ترتعد ويتصبب العرق مني؛ وأكاد أخال أنه سيُلقي

بي في قعر الجحيم بعد الحصة مباشرة. في المساء، أسترد بعضـًا من السكينة من أصوات "الحضرة" الصوفية في الزاوية المجاورة للبيت.

في سنوات المراهقة، اكتشفتُ بعض طريقي. الكتابة ذنبٌ سهل الارتكاب. وجدتُ نفسي مستغرقة في القراءة والكتابة. عشقتُ كتابةَ التعبير في كُرَّاسَةٍ ظَهرُها مُغَطًّى بالحِكَم. في أيامِ الإجَازاتِ، أهوى القراءة وتدريبَ يدي على تحسِينِ الخَطِّ.

ربما كانت كتاباتي – حينذاك– مجرد خواطر وانطباعات. إرهاصات، تحاول التمرد والخروج من حيز المكان. كتبتُ عن كل شيء وأي شيء قصصـًا وموضوعات، أضفتُ لها بعضـًا من نسج الخيال. كتبتُ عن ساعي البريد الذي يجوب شوارع قريتي؛ يدس في حقيبته رسائل ورقية يضعها أمام النوافذ لينمو ياسمين وترقص عصافير الحُبِّ في صدورنا. وسطّرت قصة عن قاض عادل في المحكمة، لكنه ظالم ومتسلطٌ في بيته، حتى أن ابنته تسأل نفسها في القصة قائلة: "هل يُشترط في القاضي أن يكون برميلاً؟ كل من شاهدتهم من القضاة الذين يعرفهم أبي، يعانون البدانة المفرطة"

أشعر بالسعادة؛ لأن أُمّي لن يكون بوسعها قراءة خُزعبلاتي. لا أستطيع أن أتخيلها وهي تقرأ ما أكتبه، مُسندةً خدَّها على قبضة يدها المضمومة في ذهول!

قبل زمن من ظهور الإنترنت وفيسبوك وتويتر، وقبل أن يكون لي أي تعامل مع أدوات التواصل السائدة وقتئذ، من بريد وتلغراف وهاتف، كنتُ أكتب رسائلي على ورقة وأطويها جيدًا؛ أضع الورقة في زجاجة؛ وأغلقها جيدًا بقطعة من الفلين؛ وألقى بها في النيل لتبحر إلى أن يلقفها أحدهم. وأظل أتخيل من هو الشخص الذي ستصله الرسالة؛ ما هي بلده؟ وكيف هي ملامحه؟

بالطبع لم أتلق ردًا على أي رسالة؛ فالنيل يجري من الجنوب إلى الشمال فقط ولا يعيد المكاتيب.

أحلم بورقٍ لم يمسسه أحد، وكتابةٍ ليست كالكتابة. بإصبعٍ مبتل، أقلب صفحاتِ السماء والكتب.. وأحلم. إيقاعات الصور تترى أمام عينيّ. عوالم جديدة تفتح ذراعيها لي.

زاد اهتمامي بالأمر بعد أن حصلتُ على مجموع يؤهلني للالتحاق بكلية الإعلام في جامعة القاهرة. تلك الخطوة المهمة جعلتني أشعر باقترابي من تحقيق حلم الكتابة والعمل في حقل الإعلام أكثر فأكثر.

والأمنية عصفورٌ يحلم بالمجاز.

صدمتي الكبرى كانت حين توفي شقيقي الأكبر، حسان، في حادث مؤلم. كان يعبر بدراجته عند مزلقان السكة الحديد، وهو يبتسم لملائكة تلوح له بأيديها. فجأة مرق قطارٌ مُسرعٌ، دوّتْ صافرته بعد فوات الأوان. مضى القطار بِحُمولتهِ الزّائِدةِ فوق جسده الغض، وسط صرخات الذين رأوا المشهد الدامي.

لا بدَّ أنه ثمة مِنْجَلٌ في السَّماء الآنَ يحصدُ أرواح عائلتي واحدًا تلو الآخر.

"يا حبيبي"!

تندفع أُمّي من الباب إلى الشارع، مسدلة الشعر حافية القدمين، وهي تصرخ، قبل أن تسقط مغشيـًا عليها، بوجه باهتٍ مثل الشمع.

تحيط بها نسوة القرية، وأحشر نفسي وسطهن، ثم نسقط جالسين، أو نجثو على رُكبنا. ألمٌ ممض وبكاء بحرقةٍ شديدة تعبيرًا عن الالتياع والأسى؛ من لا يزالون واقفين على أرجلهم استجمعوا شتاتهم وذهبوا إلى المستشفى المحلي لاستلام الجثمان وتحضير ترتيبات الجنازة.

الموت يوجع دومـاً.

انكسرتْ أمي بعد الفاجعة. ها هي تلبس مجددًا جلبابها الأسود، وتغطي رأسها بشال من نفس اللون. تجلس ساهمة بعظام وجهها البارزة، وظهرها المنحني قليلاً، ونظرها المنهكة. صار ثقبا عينيها مثل بئرٍ قديمة جف ماؤها

امتنعتْ عن تناول الطعام والشراب لأيام، وكنا نجبرها على ذلك إجبارًا. وسط دموعها التي لا تجف، كانت تردد اسمه وهي تمد حرف الألف حتى آخر المدى: حسان!

عاشت أُمِّي من أجل اللحظة التي نبتَ فيها حسان داخل أحشائها. فعلتْ هذه المرأة كل شيء، لجأت للسحرة والمشعوذين، باعت قرطها الذهبي اليتيم لتنفق على إجراء الأشعات والتحاليل، والأهم أنها تزوجت مرتين. لم تصدق ما قاله لها الأطباء عن أنه لا يوجد عيب في زوجها الأول، فقالت: لو لم يكن به عيب لماذا لا أنجب؟

كان يحبّها، وهذا أمر تعرفه تمامـاً وتثق فيه، وهي أيضـاً كانت تحبّه، لكن حُبّها للأمومة كان أقوى من أي شيء آخر، فتزوجت ثانية؛ لتنجب حسان قبل أن يرزقها الله بي.

موتُ حسان قصم ظهرها.

كان جسدها مثخنـاً بالجروح وقلبها مسكونـاً بالحزن، وهي تطفئ موقد الكيروسين كل ليلة، قبل النوم. نغرق في ظلام المكان، لكنني كنتُ ألمح دموعها، التي تفيض كشلال صغير يتسرب إلى وجهها.

أما أنا، فقد رأيته في الحلم كما لو أنه في ثوب العيد. يرتدي بدلة جديدة كحلية اللون من صوف المحلة وبنطلونـاً رماديـاً فاتحـاً وقميصـاً أبيض وحمالة نايلون بيضاء. لوّح لي بيده، ثم اختفى وسط الضباب.

أدعو له الله، وأنا واثقة من أنه سينضج في السماء ويستوي رجلاً، عندما يستيقظ على الجانب الآخر من جسر الموت.

يا لها من تجارب مررتُ بها منذ أن دخل الموت دارنا ولم يخرج، كأنه المالك ونحن المستأجرون!

حين تزول هذه اللعنة، سأرميها مع الضفينة في بئرٍ بلا قرار.

(٣)

نبدأ بالسفر أو الهجرة للابتعاد، حتى يصبح البعاد هو وطننا الجديد.

كأي مهاجرين قلقين، نخلع البيعة عن مكان لنستبدله بآخر، قبل أن نتذكر أن في ترحالنا لا شيء نمتلكه إلا النسيان.

أحببتُ في تلك المدينة نعومتها ومنظرها على البعد حيث سكنت، وهي راقدة في دلال يحتضنها جبلٌ كأنه الشموخ والكبرياء؛ إذ كان يعتلي قمته تاجٌ من الجليد معظم شهور السنة. على مدى البصر، كانت تبدو قمة الجبل المكسوة بالثلوج كأنها تلامس ثوب السماء الأزرق، فيما كتل الثلوج المتجمدة تلمع بيضاء وسط الأخاديد العميقة.

أقمنا في بيتٍ من طابقين. سعدتُ به سعادة فائقة؛ لأنه البيت الذي حلمتُ به طويلاً ولم أحصل على مثله من قبل. بيتٌ بحديقة صغيرة أجمل ما فيها تكعيبة عنب في أحد أركانها، ونافورة مرمرية ذات أسود منحوتة عليها.

يأتي ستيوارت مرة في الأسبوع، ليجز الأعشاب، ويعتني بالحديقة، ويُحضر لي بعض البذور التي طلبتها لغرسها. يشير في سعادةٍ إلى شجرةٍ ينهض منها اللوز مُثقلاً بقلبه المُرّ؛ ثم يرفع يديه المشعرتين أو قبعته الرياضية قبيل غروب الشمس مُلوِّحـًا بتحية المغادرة.

عندما أقترح عليه بعض التغييرات في الحديقة، يحكُ ذقنه الداكنة بأصابعه المخلبية البيضاء وهو يُحدث نفسه أولاً، قبل أن يجيب عادةً بكلمة واحدة: حسنٌ!

ليلاً، حين يصعد قمرٌ مكتمل فوق بيتنا، تغمر المكان طُمَأنينَةٌ فريدة. قد أنعس فوق أريكة صغيرة وضعتها تحت شجرة ليمون مزهرة ينتشر أريجها في الهواء.

هناك قضينا أحلى "العصريات" وأرق لحظات الصباح وأمتع السهرات.

هنا تعلمتُ أن السعادة لا تسكن في ما يحيط بنا، بل إنها تقبع في داخل كل منا تنتظر أن نحررها.

أضع في أنحاء البيت قطع ديكور مصرية وإكسسوارات فرعونية تكشف عن هويتي وتؤكدها؛ أكواب شاي صغيرة وإلى جانبها إبريق صاج تقليدي كالذي نجده في المقاهي الشعبية، وبردية مقلدة، وقطعة قماش شرقية مطرزة برسومات السرادقات أو "الخيامية"

أنا في حاجةٍ ماسة لمثل تلك الأشياء الصغيرة لتكون علامات طريق؛ لأن الحنين هو زاد المهاجر. أشياء بسيطة تخفف من وطأة الغربة وثقل الغياب.

لديّ جاراتٌ لطيفات المعشر. حرصن منذ الأسبوع الأول لسكناي في الحي على زياريّ الواحدة تلو الأخرى، وإهدائي سلالاً من الفاكهة والكعك الشهيّ المخبوز منزليـًا. تقول لي الجارة روزان بصوتها المنغم: نحن سعيداتٌ بكِ. لا بدَّ أن نلتقي ونخرج للتسوق أو تناول الغداء بين الفينة والأخرى.

أردُ بالتأييد وكلمات المجاملة. سعاديّ أكبر منهن، فأنا في نهاية الأمر وافدة عليهن من مكانٍ بعيد، وثقافةٍ مختلفة.

أحفظ الكعك في علبة مغلقة بإحكام، حتى يأكل منها سمير لدى عودته من العمل. لم أكن بحاجة إلى ما يزيد وزني، خاصة أني لا أمارس رياضة عدا التريض. أقضم من حبة تفاحٍ في تلذذ. تسيل عصارتها المسكرة من فمي، فأقول بتلقائية: الله!

أتأمل أرجاء صالة الجلوس الفسيحة؛ أنظر إلى انعكاس وجهي وجسدي على مرآة الحائط المواجه لي. جسدي فراغ مَدروسٌ بعِنايَة.

خطر لي خاطرٌ مفاجئ، قبل أن أهمس بصوتٍ خفيض كأنما أخشى أن يسمعني أحد؛ يجب على الأقل أن ألتحق بصفوفٍ لدراسة اليوغا. أريد نشاطاً يمنحني بعض صفاء الروح والذهن.

شتائي الأول هنا كان استثنائياً في كل شيء.

كانت الأرض قد ارتدتْ البياض الناصع.. بدأ اليوم بهذا المشهدالبديع، واستمر تساقط ذاك القطن الناعم بشكل متقطع. مشهدٌ يدعو إلى السكينة. هذا الغطاء الأبيض الممتد عند حافة البحيرة ينشر برودة تتسرب إلى أعمق أعماق الجسد المجهد أصلاً.. تبقى تلملم جراحك. ربما هي الطبيعة تأتي لتساهم في نشر شيء من البهجة المرتبطة باللون الأبيض.

رغم البرد القارس، فإن صباحاً كهذا لا يمكن إلا أن يبعث على السكينة.

الشّتاء ضيفٌ شبه مقيم وليس فصلاً عابرًا. أرتدي ملابس ثقيلة؛ لأن نزلة البرد في مثل هذه الحالات تُربك نظام الكون وتجهزنا ضد الحياة مع كل عطسة. أنفخُ في يديّ عادة، لعلّ البردَ يكفُّ عن قضمِهما.

الثلج الذي يهمي، نجومٌ تهوي دون أن تحدث ضجة، كممرضة حنون تسير على أطراف أصابعها وهي تتفقد مرضاها.

يتلاشى البياض مع تقدم ساعات اليوم، ربما لأن درجات الحرارة بدأت في الارتفاع بنسبة بسيطة، أو ربما لأن هذه المدينة التي اتشحت بالبياض والسكون كان عليها أيضـًا أن تبدأ رحلة الحياة بكل صخبها المعتاد.

على الأرصفة التي تمتصنا ببطء، وفي الشوارع التي تُسلمنا من متاهة إلى أخرى، يخبو الألق وينمو القلق.

مع ساعات النهار الأخيرة تزداد المساحات الرمادية. يبدأ البياض في الاختلاط بطين الأرض أو هكذا يبدو كما كل شيء في هذا الكون، يتلوث بعض الشيء ليس بتراب الأرض ولكن بوسخ النهارات الطويلة والأيام المتعبة. غير أن هذه المدينة كامرأة جميلة في أواسط العمر تبقى محافظة على بعض من رونقها وجاذبيتها.. كلما اختلط البياض وازدادت رمادية السماء عادت لتطل الشمس أو بعض من أشعتها، سارقة للحظات من بين زحمة الغيم المتراكم على امتداد البصر، فتعود بعض الإشراقة وتتلون اللحظات بألوان الطيف كثير من الخضرة، حتى أن عينيك تتعبان من كثرة التحديق.

نفس تلك العيون التي اعتادت وتربت على درجات اللون البني وتنوعاته، هي نفسها الآتية من صفرة الأراضي القاحلة وكثبانها الرَّملية وزرقة النهر الذي أصبح بعيدًا بعيدًا، هي نفس العيون التي يتعبها اللون الأخضر الآتي من حبل الأرض بعد موسم أمطار غزيرة.

تختفي الشمس وراء سماء حمراء، في حين تهبُ ريح شمالية باردة تكاد تتجمد لها الأقدام.

النهار الذي خانه اللون حد التعب، يُنهي مهمته باكرًا ويستسلم للعتمة المربكة. لم يعد هناك صيادون يراودون الأسْمَاك في الماء، ولا أسماك تنتظر الطُعم المعلّق في صنارةٍ معقوفة كأنها الألم.

يرحل البياضُ شيئـــاً فشيئـــاً، ليس فقط من فوق أوراق الشجر أو على أرصفة الطُرُق والأعشاب الرطبة، بل وحتى عند حافة الحوارات المتعرجة. كثيرة هي التفاصيل التي يبقى الشيطان متلبســـاً بها أو ربما يغلفها.. سكينة البياض ما تلبث أن تتلاشى، وذاك السكون الذي يتلبس المارة يرحل تدريجيـــاً، ربما ليس عن كل المدينة بل فقط عند مساحات الضجيج الساخنة.

أصيب نجاحـــاً ملموســـاً في عملي، وأتقدم بخطى ثابتة. مع ذلك، يتملكني شعورٌ بالنقصان. أعبر الحياة عبر ممراتٍ سرية وضيقة وكئيبة. أسير وحيدة مع ظلي، كما لو أنني جئتُ هذا العالم لأبحث عن بابٍ خلفي للهرب.

ذات ليلة، وجدتُني أتألم بصوت خافت. انتبه سمير وسألني، فلم يتلق سوى كلماتٍ مُطمئِنة ودعوة للعودة للنوم.

زاد الألم فارتفع الصوت، ثم صدرت صرخة حاولتُ كتمانها فلم أفلح.

في المستشفى، اجتمع الأطباء المناوبون وانتحوا جانبـــاً وتهامسوا وكأنهم يخشون أن أسمع أو أفهم تفاصيل حوارهم. سمعت أنهم تداولوا في ضرورة استدعاء أطباء أكثر خبرة وأعلى مكانة فالمسؤولية كبيرة بالنسبة لسيدةٍ على وشك الإنجاب في عملية قيصرية.

ضرباته في رَحِمي تشتد، وأنا أحاول أن أستخلص نفسي من الصرخة.

الجنين لا يستأذن؛ فقط يطلب الخروج من محارته الوادعة إلى عالمنا الرحب.

فرح سمير بقدوم مولودنا الثاني. ومعجزة الأب أنه يُحِبُّ طفله فور أن يُقالَ له: هذا هو طفلك.

"رامي. سيكون اسمه رامي. ما رأيك؟"

اكتفيتُ بابتسامةٍ وادعة. نسي سمير أنني كنتُ في شهور الحمل الأولى اقترحت عليه هذا الاسم تحديدًا، إن رزقنا الله بمولود ذكر.

ابننا الثالث، وليد، كان اختياره اسمه مشتركـًا. سيظل آخر العنقود وليدي مهما كبر.

تذكّرت ما حدث؛ تعلّقه بي في رحمي لأكثر من عشرة أيام بعد انقضاء الشهور التسعة، وهلع الطبيبة ذلك النهار وهي تشرح لي حالته الصحية إن تجاوزنا ٢٤ ساعة أخرى دون أن يرى النور. تلك الليلة تشاجرتُ مع الممرضات؛ لأنهن جلبْن لي طبيبـًا متدربـًا بديلاً لطبيبتي التي انتهى وقت عملها قبل وصولي بساعة واحدة.

صرتُ أمـًا لثلاثة أولاد.. وطفل كبير!

(٤)

"الصَّبر مفتاحُ الفرج" أشهر جملةٍ حفظتْهَا الطفولةُ لي. كنت أراها في كل دار، وفي كل عين مختلطة بالشقاء والألم.

قررتُ منذ معارك المراكز الأولى في المدرسة، والتي عافتها نفسي بسرعةٍ لا تتفق مع سني وقتها، ألا أقدم على شيء لأثبتَ لأحدهم شيئـــاً ولا حتى لأهلي. أفعل كل ما باستطاعتي كي أرضى عن نفسي أولاً، ولا أهتم بإرضاء أحد سواي. تلك الأنانية المفرطة جعلتني أتجاوز الكثير؛ لأفني طاقتي في معارك غير ضرورية أخرى، لكنها على الأقل معارك من اختياري لا تخضع لما يتوقعه أو ينتظره أحد.

حين نجحتُ في امتحانات الثانوية العامة، انخرطتْ جدتي في ولولة لا أعرف إن كانت صراخـــاً أم زغرودة متقطعة، انتبه لها أهل القرية الراقدة على ضفة النيل.

لم يكن الانتقال من حياة الريف إلى أجواء القاهرة سهلاً، لكنني تدبرتُ أمري بسرعة، وتأقلمتُ مع حياتي الجديدة، وتهدئة تخوفات أُمِّي البسيطة الصابرة. لم أعد تلك الصغيرة التي ترتبكُ في عدّ قروشها وتضفّر جديلتَها وتظنُّ برجَ الكهرباءِ نخلةً خضراء مضيئة. صرتُ فتاة مكتملة الأنوثة، تمتلك ثقافة جيدة مقارنة بأقرانها، وتتباهى في الوقت نفسه بجسدٍ تسكنُه المباهج.

في زياراتي القصيرة للقرية خلال إجازاتي الأسبوعية، كانت صديقاتي هناك يستقبلنني بالفضول الذي يليق بكائن فضائي. كنتُ أجدهن يتحلقن حولي، وكلهن عطشٌ لحكايات لا يقولها المذياع ولا جهاز التليفزيون عن حكايات المدينة.

في قريتنا، الأرض حُبلى بالتعب، والفأس سليل أحزان كثيرة.

لا بدَّ من الاعتراف بأنه كانت هناك أشياء في ريفنا البسيط أحِنُ إليها كل ليلة؛ تواشيح الفجر في الزاوية المجاورة لبيت العائلة؛ وصافرة القطار؛ وهدير ماكينة الري؛ ونقيق الضفادع الآتي من الغيطان البعيدة. كان مشهد القطار وهو يقطع سكون الليل بضجيجه، وأنوار عرباته؛ مثل نداهة ساحرة تأخذ العقل.

أول درس تعلمتُه في المدينة الصاخبة هو أن زقزقة العصافير في الصباح، ليست سوى مصيدة لاستدراج السذج إلى الشارع القبيح.

تعيش الشوارع أزمة مدنها، فعندما تكون المدينة غير مستقرة يحمل شارعها قلقها. والقاهرة مدينة لا شبر فيها لا يشكو من ثرثرة المارة، ولا متر فيها لا يحتفظ بكلماتٍ نزقة أفلتت من عاشقيّن.

في القاهرة أيضـــًا، جدري البشر أصاب الطُرُق بالعدوى.. والكل ينتظر الشفاء الإلهي.

أكتشفُ أن في القاهرة التي يخنقها الزحام، هناك ما هو أكثر إيلامـــًا من المساحات الضيقة المسكونة بالضوضاء والضجيج؛ تعليقات سمجة من صعاليك لا يتورعون عن التحرش بأي أنثى عابرة، وموظفون حكوميون ورجال شرطة لا يجيدون إلا إفساد بهجة يومك، وحافلات وشاحنات مسرعة يُمطرك

سائقوها باللعنات، وسيارات فارهة تحمل أسماء شهرة غير رومانسية مثل الخنزيرة، والتمساحة، والبودرة والشبح.

الشوارع المزدحمة هديةٌ قبيحة من شخص لا تحبه.

في المقابل، ثمة مغبونون يجوبون الطُّرُقات، وهناك دومـاً من ينتظر لحظة مواتية كي يقتنص حقـاً طال إليه الاشتياق؛ بائعة خضروات تشكو شح الطعام كلما اضطرها المرضُ إلى أن تبقى طريحة الفراش؛ سيدة جالسة أمام عُشتِها المنهارة تنتظر المسكن الموعود، وخلفها سياراتٌ فارهة ومجندون محشورون في عربات مصفحة. مر بذهني أيضـاً طفل شوارع ينظر إلى محل عصير فواكه وقد جف ريقه، وحامل مناديل معطرة يتكئ على ألمه وهو يبتسم.

في سكني الجامعي، ينقطع التيار الكهربائي. أحمل البطارية وأجرّ خطّ النور في الغرفة.. كإنسان يُضيء. أتعثر في قطع الأثاث القديمة، المتآكلة والمهترئة في حيز ضيق وخانق، وسط جدران كالحة لم تلمسها فرشاة طلاء من زمن.

تتضاحك رفيقات السكن، فأشاركهن الثرثرة لتزجية الوقت، حتى يترفق بنا المسؤولون في وزارة الكهرباء، فيعيدون إلينا التيار الكهربائي، وتتعالى صرخات الفرح ابتهاجـاً بعودة الحضارة إلى غرفنا الضيقة.

تطل غرفتي التي ترشح منها الرطوبة على جراج فندق مجاور، كنتُ أرقب منه أحيانـاً مجموعات من الشباب الصاخبين وهي تغادر الفندق في جوف الليل. ترتفع أصواتهم غليظة وواثقة، وقد تخالطها ضحكات مشوّشة لفتيات يرافقنهم في تلك الحياة الرخيّة.

من الشرفة، أتابع معركة كلامية تنذر بعاقبة سيئة، بين رجل ضئيل الجسم، وأحد جيرانه، حول أحقية أيهما في ركن سيارته تحت المترل المؤلف من سبع طوابق. تتداخل أصواتٌ غاضبة وشتائم نارية وتهديدات، قبل أن يتشاجر

الرجلان البائسان، ويتشابكان بالأيدي، قبل أن يتجمع عدد من أصدقاء الثاني. للحظات لا أرى ما يدور في وسط الحلقة، حتى يخرج منها الرجل الأول مضروبـًا، متورم الوجه، ممسوكـًا كاللصوص، يجرجره رفاق الثاني على سبيل الإذلال والإهانة.

أجلس عادة إلى طاولة معينة في أحد أركان مقهى بسيط مجاور أتكئ عليها بأوراقي لأسطر أفكاري وخواطري وما ظننته يومـًا شعرًا. هذه الطاولة شهدت عينيّ تحدقان في السقف كثيرًا، وسيول الأفكار وبعض الظنون تتسارع في ذهني بسرعة البرق.

كنتُ أهرع إليها شاكية باكية حزني وانكساري، فكان وجودها يواسي آلامي.

أخشاب طاولتي القديمة المهملة لن تبوح يومـًا بأسرار حيرتي وعشقي وانتظاري وتأملي وشكي ويقيني؛ لأن النميمة والأذى ليسا من طباعها. كم أفتقدها وأفتقد رفقتها!

في النهار الذي اختطفه القيظ، الرأس دفترٌ تفتحه أشعة الشمس وتكتب عليه ما شاءت من عبارات الصداع والدوار.

في الميدان الوسيع، التحرير، حيث الشمس إبرة صدئة، كنتُ أهوى الجلوس إلى أي مقعدٍ خشبي عتيق يتمتع بخلو هادئ مؤقت. أنظر إلى مبنى مجمع التحرير الضخم، وشارع القصر العيني بكل ما فيه من مؤسسات حكومية، ثم أدير رأسي إلى الوراء صوب سط البلد الصاخب.

أعبُرُ الميدان بقدمين تأكلان الأحذية وبنطال جينز أكلَ الغسلُ المتكرر وهجَ لونه، وأتفادى بشيء من الاندفاع سياراتٍ تتذمر من المارة ولا تترك للأسفلتِ

أية راحة طَوَال النهار. أحتمي بالرصيف الضيق المتآكل. لطالما كانت علاقتي به دافئة؛ فأنا أخجل كثيرًا من وقع أقدامي على ظهره.

أتجه إلى شوارع قصر النيل وطلعت حرب وسليمان باشا، وأنا أُلملم نظرات العابرين والفاحشين مكتملي التكوين ومدمني البانجو وأدوية السعال، وهم يتفحصون جسدي الشاب.

لا يبالي خصري بما يدور حوله من حروب الشبق. أكره الأشرار الذين يستهدفون جسدي. ماذا بهما عيناي؟ ماذا بهما هُداي؟

إنهم أسوأ من مصاصي الدماء وآكلي لحم البشر.

ألتقي مع رفاقي، ونتسامر قليلاً، ونتخلص من همومنا وأسئلتنا عن المستقبل الغامض لنا وللوطن. نتضاحك، لكن الفرح فراشة تحترق سريعـًا بنار الواقع الفظ، والخوف الذي يسكن مفاصل العظام. في تلك الأيام، كنا نقاوم الجمود بخفة الشباب، حتى وإن كنا مقتنعين بأن كل شيء في بلادنا يمضي ويتفكك، قبل أن يعيد بناء نفسه في أشكال أخرى لا تقل قبحـًا أو رداءة عن الصورة الأولى.

انشغل بعضنا بالتدريب على عدم المبالاة، وخنق أي مساءلةٍ للنفس، واحتفظ القليل منا بالحد الأدنى من التماسك العقلي، في مواجهة كل هذا العبث.

لا أتمتعُ بصوت جميل، لكني اعتدتُ أيام الجامعة على الهتاف وترديد الأغاني الوطنية. كنتُ، ككثير من أبناء جيلي رافضين للوضع المزري القائم، فانتمينا إلى معسكر اليسار، وخاصة التيار الناصري. في نادي الفكر الناصري، كنا نقضي جزءًا كبيرًا من التربية السياسية في الغناء. كان لكل واحدٍ منا أغنيته

الأثيرة إلى قلبه. دأب عماد على غناء "يما مويل الهوى" بكل جوارحه، وكان عبدالحليم يردد "ازرع كل الأرض مقاومة" بروح الهتاف أكثر من الغناء.

أحبَّ نصار "شيّد قصورك" كان لهذا الشاب ظلّ مشاغب، يغافل صاحبه ويُسلم. مال آخرون إلى أغاني أحمد إسماعيل وخصوصـــاً "مفيش في الأغاني"، وكان هناك إجماعٌ على أغنية "يا طوبة حمرا" عرفنا أن عبدالمحسن، الذي يمتلك ابتسامة مُذابة على فم طويل الأناة، يُفضّل "غني يا سمسمية" أما ابتهال، فلا أنسى أداءها بمزاج رائق في معسكر بلطيم لأغنية "أهو ده اللي صار" كانت أغنيتي المفضلة "البحر بيضحك ليه" كلمات نجيب سرور وألحان الشيخ إمام عيسى.

كنا نمشي في الشارع في مجموعات كبيرة كمستكشفين لا تعوزهم الجرأة، ونحن نردد أغنية الشيخ إمام "هنغني ودايما هنغني" نهتف للذين لم يهتف باسمهم أحد.. الطيبين الذين لا سلاح لهم إلا العرق ولا حروب يخوضونها إلا الحياة. أولئك الذين قضوا بالسرطان والكبد الوبائي والفقر والمياه الملوثة.

في أيام الانتخابات إياها، كنا نغني بروح التجريس السياسي "العيسوي بيه"، وكنا ننشد أمام السفارة الإسرائيلية مقاطع من أغنية عمار الشريعي "من عشقي فيك يا محروسة يا إنسانة، لا كرهت سجنك ولا كرهتني زنزانة"

بالأمل والعمل، وربما أناشيد القلب، لا يموت الحلم وينتصر الحق الجميل على أورام القبح المتفشية في جسد الوطن.

في تلك الفترة، كنتُ أحلم بخوض تجربة مهنية. أن تكون هناك جريدة من نوع آخر لا تنام في حضن السلطة ولا تغازل شبكات المصالح ولا تستمع إلى رأي المعلن أولاً ولا يكون الربح هدفها والترويج لثقافة السوق ورأس المال

المتوحش.. تقاوم صفحات صحفٍ مدجنة لا تنقل سوى مزيد من الكراهية وخطابات التملق المتقن حد الغباء.

جريدة لا تنام في حُضن الكسل، تنقل له الثقافة والفكر بنفس الشغف الذي تنقل فيه الخبر.. تفتح أذرعها قبل صفحاتها لكل الأهواء والآراء.. وتقول للجميع: هنا فضاؤكم، لا حدود له سوى الرصانة وعدم الانزلاق إلى الإثارة والصحافة الرخيصة.

شيء من الخيال هي؟ ربما!

لا بأس أن نحلم بالأفضل.

السينما هي متنفسُ الفتياتِ الباحثات عن أملٍ غائب.

أقف أمام شباك تذاكر لم ينفتح بعد. بيدي ثمن خمس تذاكر لي ولرفيقاتي اللاتي وقفن في انتظاري في زاوية قرب مدخل دار العرض السينمائي. الطابور طويل، والثرثرة سيدة المكان. هناك من يتأفف، وهناك من يطلق تعليقات سمجة، لكن لا أحد يغادر موقعه، فالفيلم يَعِدُ بالغرام، وكل ما هو خاطئ وجميل.

نشاهد الأفلام ونتنهد، وقد تطفر منا دموعُ التأثر بمشاهد الحُبِّ والفراق. وفي ليل غرفنا الضيقة بالمسكن الجامعي، نتبادل الحديث عن ملذاتٍ ضائعة ومواقفَ بديعة. نطيل الحديث عن وسامة البطل، ونَقُدُّ القمِيص في خيالِنا، ونحن نضمر غابة أشواقٍ مستثارة.

كلٌّ منا تواصل عذابها بطريقتها.

لم أرتبط بأي علاقةٍ عاطفية مع رفاق الجامعة.

كنتُ جميلة وذكية بما يكفي لأن أولِمَ للمولَعين بي مجاز الخيال، وأمضي.

أثناء الدراسة، تقدم لخطبتي أحدُ معارفنا، ويُدعى عماد. كان مظهره يبدو كالمتشرد بأذنيه البارزتين. يبدو أنني الوحيدة في العائلة التي انتبهت إلى تَلفُتِه المتوجس كأنه مسكونٌ بالهواجس. له أقارب كُثر لم يُنجبُوا. لحُسن الحظ، رفضتْ أُمِّي هذه الزيجة، قبل أن أصبح في مأزق عائلي. قالت أُمِّي: في عائلتهم جذرٌ جاف. ابتلعت قريبته التي توسطت في الموضوع صمتها، لكنها نجحتْ في إقناع جارةٍ لنا بتزويج ابنتها له، ولم يرزقهما الله بأطفال. سمعتُ من صويحباتي أن قَلبَها – تمامـًا كثوبِ زفافِها– ظل مُعلّقـًا للذكرى في زاويةٍ معتمة.

في سن الحادية والعشرين التقينا. مدرس مساعد في كلية طب الأسنان. دفعتني صديقتي ريم للذهاب معها للقاء عادل لأول مرة. اصطحبتني من كليتي، الإعلام، إلى كافتيريا الجامعة كي تلتقيه، بعد أن حفظتْ مواعيده عن ظهر قلب.

أول ما لفتَ انتباهي هو ملامحه. له وجهٌ بيضاوي، وعينان لوزيتان، وجلدٌ مثل حبة الخوخ، وأسنان هوليوودية لامعة. في تفّاحةِ حنجرَتِه، تضج الغواية. يرتدي بنطالاً من الكتان وقميصـًا قطنيـًا ذا زرقة محببة، في حين استراحت الجاكيت على المقعد.

بدا نموذجـًا متقنـًا للتعالي والعجرفة. يتنفس كالمصارعين، ويمط شفتيه قبل أن يصدمك بآرائه الاجتماعية والسياسية. في لقائنا الأول، قال أشياء كثيرة بلا معنى، لكنها راقتْ لي كثيرًا. تحدث بكل الرطانة والخطابة المكدسة بتعليقات لاذعة، حتى قلتُ له فجأة وببلاهةٍ لا أدري مصدرها:

- تشبه نجوم السينما!

- وسامة الرجل مسألة نسبية. أما المرأة الجميلة فهي تظل كذلك، حتى تتكلم، فإن ثرثرت بكلامٍ فارغ، انتكست المؤانسة، وتبخر الجمال.

- حسنٌ، تصلح لأن تكون سياسيـــًا.

- في المكسيك يُسمى جهاز تكييف الهواء "السياسي"؛ لأنه يصنع الكثير من الضجيج، ولكن لا يعمل بشكل جيد.

كم هو محير!

يباغتنا بسؤال عويص: لو كانت هناك ورقة توت كبيرة جدًا، ستكون بمساحة أي دولة عربية؟

نصمتُ غارقين في حيرتنا، أما هو فلا يعبأ حتى بالإجابة عن السؤال الذي أثاره.

شعرتْ صديقتي بالنفور منه، وأخذتْ تسترق النظر إلى ساعة يدها، لكنني أعجبتُ بشخصيته وأفكاره الغريبة. قلتُ لنفسي: هناك هشاشة ما تكمن وراء وسامة بهذا الرسوخ. تمنيتُ لحظتها أن أُمسك بيده وأحتضن كل هذه الفوضى؛ لأصبح الوحيدة التي تتودَّدُ إلى عيوبه.

حذرتني ريم قائلة: أول المحبة انبهار أو فضول. هذا أيضـــًا هو أول الاستدراج إلى الخديعة.

لم أعبأ بتحذيرها، كأي منقادةٍ حالمة.

تكررتْ لقاءاتنا، وتطورت. انتقلنا من رحاب الجامعة إلى خارجها.

تُحلق الفراشات داخلي، وتسبب دَوْخَةً عند رؤيته. أحلم باللحظة التي أقع فيها بين ذراعيه ووجهه قريبٌ من وجهي كمشروع قبلة.

كنتُ أغبطُ حبّاتِ المعرفةِ المُلتمِعة في ذهنه المتقد، وأفغر فمي في دهشةٍ وأنا أتذوّقُ حلاوةَ المنطقِ؛ وكان يضحكُ لفرط سذاجتي.

أذهبُ إلى أماكن لقاءاتنا كأن المسافة إليه ركضٌ، وإلا، لماذا تتسارع خفقات قلبي حين أراه؟!

يقول لي: كم أنتِ جميلة ورقيقة!

أكتفي بابتسامة خجل وارتباك.

يضحك قائلاً: أحِبُّ أن أرى كل مراحل نمو الزهرة على خدّيكِ عندما تخجلين. نصيحتي لكِ بسيطة؛ روِّضي خوفكِ، كي تستمتعي بالحياة.

أقعُ في حُبِّه، بلا رضةٍ أو كدمة. أقعُ، كما لوأنني أسقطُ على العشب وبين الورد. أكررُ الأمر، بكل الخجل، والتهور، والرغبة في السقوط.

وهو فاحشٌ كشهوة معلنة. أجاري جنونه بجنون أكبر.

في إحدى سهراتنا، نهضتُ من مقعدي لأنضم إلى المطرب، وأتمايل على وقع الموسيقى. كانت نظراتي موجهة إلى عادل؛ رقصتُ له وحده.

أخذ فستاني يورق، ويزداد النقش حيثما أدور. الدلال الطاغي رأسُ الحكمة؛ يسلب الآخرين العقل، ويمنحهم ما يقتات عليه الخيال.

أدورُ برشاقة وأنا أدرك أن الرقص سلاحٌ لا يُستهان به أبدًا؛ به من الإثارة ما يكفي لِقتل رَجل دون جريمة، وهذا ما تُريده الأنثى بالضبط.

أرقص وأرقص حتى تسري نيران الصبوة في الجوانح، ويزور الحاضرين ملاكُ الأخيلة.

فرقٌ كبير بين الراقصة الأجيرة والمتبرعة؛ مع الأخيرة تتعرى الموسيقى، ويصير الضوء في كامل لياقته، ويذهب المطرب إلى الجحيم.

الجسدُ المتمايل بعفويةٍ مغوية وعصية، يُلقن العازف ما ضاع من نوتات الموسيقى. الأنثى آلة موسيقية.. فقط أمهِلْهَا كي تمنحك معزوفتك الأثيرة.

شعرتُ ليلتَها أن الفساتين كلها كانت تدور لأجله.

يضيق خصري بسبب يده التي تحط عليه ببطء. يتفتح الورد المطبوع على القماش. وتنتعش حديقة.

نعود إلى منزله، والمصابيح نائمةٌ، بعد سهرة صاخبة.

تلك كانت ليلتنا الحميمة الأولى.

ضحكنا عند الباب ونحن نقترب بخطواتٍ شرسة.

كانت اللحظة التي تحبس الأنفاس: ما قبل أول قُبلة.

الطريقة التي ننظر فيها إلى بعضنا بعضـــاً وتتملكنا الفكرة نفسها. يعرف كلانا اللحظة التالية.

حين تمتلئ الجرار بالعسل، يضيع الكلام.

تُرى، ما الذي يهمس به مصاص الدماء في أذن الضحية قبل أن يهبط على مدرج العنق؟!

يلمس الشامة برفق. شَامَة العنق قَمرٌ تائِه، فإن شاء العاشق زادها دلالاً أو ضلالاً

نمضي كالمنومين مغناطيسيـــاً إلى غرفة النوم.

قبل أن نطأ بياضه، قبل أن نغزل حريره، كان مجرد مخدع عادي. ها هو يصير واحتي وجحيمي.

يتسلقني، من أخْمَص قَدَميّ إلى شفتيّ، مثل شجرة لبلاب بشرية. ثم يصلب نفسه عند هَديّ، فترتفع قبتا أنوثتي في ذهول.

تهزم الاستثارة الوجل.

أسلمتُه روحي، وتهدّلَت على كتفيّ ضفائر الحُبِّ، حتى دانَ الحريرُ له.

يهمس لي: لا بدَّ أنني متُ؛ لأنني أدخلُ الآن جنتكِ.

في ذروة الوصال، نحلم بشيء يدوم ويهزم المؤقت. نريد شبقـًا يُكتب له الخلود.

يطلقُ أفراس جنونه، قبل أن ألملم الياسمين المبعثر.

الليل مستودع الأسرار؛ يرى الأفعال ويسمع الأقوال، لكنه يطفئ القنديل كي لا نخجل منه.

الدهشة تغزل روح الصباحات الجميلة.

في الصباح كان رومانسيـًا، على غير عادته. نتناوب على كوب القهوة، وقُبلات الصباح الأولى. يمد يده إلى علبة سجائره. يلتقط واحدة ثم يعطيها لي. أقول له في دلال: لا أخاف على صحتي. يرد قائلاً: كافكا هجم المخلب على رقبته من دون أن يشعل تبغـًا. جرّبي.

كانت سيجاريّ الأولى؛ جرّبتُها فقط لأنفث دخانها كما يفعل. احتضنني من خصري وهو يهمس لي: لا مكان للحديث بين التصاقنا الآن. لا مجال للتقبيل إلا على ظهركِ.

أشعرُ بنداوةٍ غامضة في جسدي وعلى النوافذ والستائر.

أسأله متمنعة: أليس لديك اليوم عمل؟

يرد قائلاً: كل مشاويري في هذا الصباح ما بين شفتيكِ وحلمتيكِ.

استراحتُه ستكون عند السُرّة، بيت المسرة، وجوهر المعنى في بطن الحياة.

يصير صدري سَلّة زَهْر. أذكرُ كم كان يحِبُّ فيها زَهْريّ الجُلنّار.

في كل خطوة أقتربُ فيها من لهب جحيمه، تحترق أطرافي وأجنحتي؛ تتبخر كلماتي وتتلاحق أنفاسي. أحترق وأتلاشى.

عندما كان يهمُّ بالنهوض من الفراش، قلتُ له في دلال متثائبة: حبيبي، لا تطلق سراح رِجليَّ من بين رِجليك.

يطبع قبلةً حانية بين عينيّ، ويقول لي: ابتسامتكِ هي جسد العالم، لكنني مضطر

في المساء، أرسلتُ له رسالة نصية تقول: القُبل التي زرعتَها على ظهري هذا الصباح بدأتْ تنبت. أشعر بزهرة عباد الشمس تتطاول على عنقي.

يسألني: إلى أي مدى تحبينني؟

أجيبه بلؤم:

"أحبُّك بما يكفي لأن أصدَ جحيم روحك عنك؛ أحبُّك بما يكفي لأن أقاتل كي لا أبيتَ خارج قلبك لحظة واحدة. الأكيد أنني عرفتُ كيف وأين سأموت، في اللحظة التي ولِدتُ بها.. في اللحظة التي نظرتُ بها إلى عينيك"

دون وعي مني. بدأت أحِبُّ ما يحِبُّ وأسعى لنيل إعجابه. أتقمص دور الفتاة الأولى في حياته، وأنتقي الشِعر لعينيه الصغيرتين.

دون وعي مني، بدأت أحِبُّ ما يحِبُّ وأسعى لنيل إعجابه. أطلقتُ جيوشَ النّملِ تلملمُ فتاتَ اللهفةِ على كلماته.

أتقمص دور الفتاة الأولى في حياته، وأنتقي الشِعر لعينيه الصغيرتين.

أنسخ له قصائد كاملة لنزار قباني وغيره، تاركة للأوراق حُريّة امتصاص الحبر كما تشاء. خرسُ الرجل الشرقي صَنعَ أسطورة نزار. النساء أذنٌ،

والرجل لابدّ أن يكون شفتين. نزار شاطر في مكافأتك بالدهشة حين يقول ما نخجل منه ببساطة.

لم يكن عادل يبالي كثيرًا بهذه المحاولات الساذجة للمس قلبه. كان يمط شفتيه ويقول لي: أتعرفين، حين أستيقظ متعكر المزاج، أكون في وضع لا أفرق فيه بين المرأة وعمود الإضاءة!

أكتبُ له بعض خواطري: "أنا امرأة عاشقة، تنسى أن تغلق الباب خلفها، وقد تفقد حقيبة يدها، وأحيانـًا تتمنى لو أنها نسيت ارتداء حمالة صدرها، ويحدث أن تنادي أحدهم بغير اسمه.. باسمك مثلاً!

كعلامةٍ فارقة، يرتجف حرفي عند كتابتك. تمر بعض تفاصيلك خلسة بين حروفي، وتتنهد البقية عندما تسير بخطواتك الواثقة على مهل.

أرتديك حبيبي لأكون أجمل، فليس هناك من هي أكثر أنوثة من امرأة عارية إلا من حبيبها"

بعض الشغف المكتوب شغب؛ بعضه الآخر شجن.

يحكي ببطء، وأنا أتلذذ بكلماته التي تستخف بكل المسلمات في حياتنا وتعلن التمرد على القيود. يغرد خارج السرب، حتى يود السرب أن يتبعه.

أسأله:

- هل تهتم؟

- بِمن تحديدًا؟

- الناس، على سبيل المثال.

- إطلاقـًا.

- لأنك لا أحد في عالم الغير؟

– لأن هناك ما هو أهم.. بكثير.

أتذكره وهو يقول لي ذات يوم: "لا أستغربُ ممن تعجبه الورود، فشكلها جميل جدًا، لكن أستغرب ممن يهديها. كيف يصبح شيء هش ومحتضر رمزًا لمعان خالدة؟!"

أهداني ذات يومٍ كتاب ميشيل فوكو "التهذيب والطاعة" قال إنه كتابٌ مهم، لكنني وجدته كتابـًا ثقيل الظل ويحتاج إلى قاموس لتفسير وشرح مفرداته معانيه الصعبة.

مع ذلك، فقد جاهدتُ لاستكمال قراءته، وكلما توغلتُ في صفحاته عدتُ إلى الصفحة الأولى منه؛ لأتأمل في إعجابٍ أثر حَرقٍ بسيط من طرف سيجارته عندما قرّب الكتاب إلى عينيه.

أسأله عن سر تعلقه بالكتب، فيرد بأسلوبه الفريد: بعض الكتب تستحق النشر.. بعضها الآخر تستحق الستر.

سرتُ خلفه مغمضة العينين. أقول له: أنت تسلبني إراديتي.. كيف تفعلها؟!

يمط شفتيه، ويرد قائلاً: لا أفعل شيئـًا يذكر. كل ما أقوم به هو أنني أفتح عينيكِ على اتساعهما، كي تري العالم بشكل أفضل.

حضرتُ معه ومن أجله ندوات ولقاءات فكرية وثقافية، رغم شعورٍ غامض لازمني بوجود مناخ من التواطؤ يكرّس اعتلاء النجومية في هذا الوسط الثقافي. لم يكن يهم كثيرًا مضمون تلك اللقاءات والندوات بقدر الحرص على جذب الاهتمام الإعلامي لتكون في الغد حديث الناس.

ذات يومٍ فاجأني بقرار الهجرة.

ارتبكتْ. سألته عن سبب تفكيره في السفر، فحكى لي عن طرفةٍ من أيام ألمانيا الشرقية، تدور حول زائر رأى تمثالاً نصفيـًا للزعيم السوفيتي فلاديمير لينين في برلين الشرقية، فسأل الدليل السياحي عن سبب الاكتفاء بمنحوتة نصفية، بدل عمل تمثال بكامل القامة لهذا الزعيم. أجاب الدليل: "لو صنعنا له ساقين لفرّ هاربـًا إلى الغربية"

لم تكن الحكاية كافية لكي تشفي غليلي. كررتُ السؤال، صمتَ لبرهةٍ وعلى وجهه أسى وحشيٌّ، قبل أن يُحدثني عن أشياء كثيرة ليست موجودة هنا، لكنه يستطيع تحقيقها بل وامتلاكها هناك. أردف قائلاً: لم أتمكن من تحقيق أحلامي هنا، بسبب أجواء الفساد والشللية في كل مكان. دائمـًا هناك ثمن ندفعه للحفاظ على كرامتنا وحقنا في أن نقول "لا"

- ماذا عني أنا؟

رد ببساطةٍ محايدة: الحقي بي. سأكون في انتظارك.

- الطيران هو حلمي الأقدم. أوَدُّ أن أهرب من هذا العالم، من هذا الجحيم.

- كلنا نريد أن نحلق، كي نسمو، أو نتحرر، أو نبتعد؛ أوليس كل هذا حيلة على هيئة حلم كي نكون كما نريد!

- أتمنى ذلك.

- هاتي جمالكِ ورائحة جسدكِ وبشرتكِ الناعمة.. وتعالي.

كانت آخر قبلةٍ بيننا كصافّرة نداءٍ بعيد.

غابتْ عني أخباره بعد السفر.

أصابتني في غيابه نوباتٌ أعادتْ دمي للبئر التي خرج منها، عندما يتأهب الحنين فلا رادع له. أصير معلّقة مثل ضحكةٍ على شرفة ليل. قلقي المثقوب، تتخلل فتحاته الأشواك.

أبتهلُ إلى الله: اجمعنا يا ربي مثل يدين مضمومتين. اجمعنا يا رب مثل "آمين"، من بعد دعاء يرتعش.

أكتبُ له رسائل عدة. قلتُ له في إحداها:

"أعدد عيوبك كي أكرهك.

المحبط أنني أحبُّك أكثر، كما لو أن سيئاتك تزيدك وسامة"

الآن وقد أحببتُ، لم يعد العالم بدونه محتملاً.

فجأة، يصبح عالمي غرفة هائلة لانتظار حبيبٍ غائب.

لا أكف عن الكتابة إليه رغم غياب أخباره عني:

"يؤلمني أنك لا تحبّني بقدر ما أحبّك. كأنك تضع "لا شيء" في صدري وترحل. أتورم بغيابك والفراغ"

أبرر صمته بانشغاله بإعادة ترتيب حياته الجديدة. أشكو لريم قائلة:

"في غيابه يمشط الحزن جدائله على كتفي"

تبدو أكثر تشككـــاً في أمره؛ إذ تقول لي:

بعض العلاقات تشبه الهيكل العظمي، لا يكسوها لحم التواصل، ولا يسري فيها دم المحبة.. وخالية من نبض الحياة. وحدهم السُذّج من يصفونها بالغرام.

أشعر بالاختناق. أحلمُ بالغرق في فائض من الماء، لكنني عاجزة حتى عن البكاء.

لا تنصح ولا تعذل في ساعات الألم. هذا الرثاء المتأخر يؤلم الضحية أكثر من الجرح نفسه.

تستدرك كلامها، فتواسيني قائلة: "استحضريه بخيالك؛ ليفر الحزن ويخجل الفقد من نفسه"

ليس لي سوى مفكرتي، مستودع أسراري وخواطري. أكتب فيها:

"انتظريه

على شرفة الأيام

بهدوء وشوقٍ

انتظريه.

لا تتعطري إلا بالأمل

وانتظريه.

فإن تأخر، اسألي عنه الرفاق

فلربما أصابته لعنة انتظاركِ،

فاختطفه طائر الأسى،

واختفى"

في تلك اللحظات المطلية بالوحدة، كل ما أكتبه.. يمحوني.

أقاومُ الحنين بشجاعةٍ كمن يقاوم داءً عُضالاً

لم أعد أكتفي بتدخين علبة سجائر واحدة يوميـًا. بدأتُ مرحلة العلبة الثانية، رغم نوبات السعال الصباحية التي أخذت تضايقني بشدة.

في حربي مع الوقت، وجثة الوقت بيننا، أحلم بطائرةٍ ورقية أتعلق بها، وتحملني الرِّيحُ إليه.

أتأمل صورته التي لم تكن تفارق حافظة نقودي. أحملها كعادة كثير من البنات، مخبأة خلف بطاقتي الشخصية؛ أستشعر من خلال فعلي ذاك أنه معي.

فقط من يستحق، نشد إليه رحال الخيال.

أكتب له، كما لو أنني أتلهى بتقشير جلدي من حروقي البليغة:

"تسقط فيّ. لينةٌ أنا من أجلك وتهون عذاباتي.

تقع صلبـاً في أضعف أجزائي. تخترق بقعةً ما من روحي.

لكَ ذلك. إنما خُلِقَت ليديك الحادتين، طيعة.

أشقى وأحبُّك؛ أشقى وأتنفس من عينيك اللوزيتين، من فمك الوردة، صباحاتي.

ألومك أيها المتأخر كموعدٍ عاطفي، ويؤلمني مثل طعنةٍ تنسحب من القلب ببطء، أن أنتظر اطمئنانك عليَّ وسؤالك، وأن يظل انتظاري بلا جدوى"

قررتُ أن أبذل قصارى جهدي لألحق به فعلاً. تقدمتُ لنيل منحة دراسية، وزرعت شبكة الإنترنت طلبات توظيف، وسألت أصدقائي الصحفيين العون للفوز بأي فرصة سانحة هناك.

أخيرًا، تمكنتُ من تحقيق ما أصبو إليه بصعوبة. اقتنصتُ فرصة عمل براتب غير مغرٍ في مجلة تصدر باللغة العربية في لندن. أنهيتُ أوراقي في السفارة بعد لأيٍ، حتى صرتُ خبيرة ببعض المطالب التعجيزية والشهادات التعليمية المختومة والموثقة، وما إلى ذلك من أوراق وتفاصيل مزعجة.

سافرتُ وسط دموع الذهب في مُقل الأهل والأصدقاء.

في ليلة السفر، كان توضيب الحقائب يبعث فيَّ إحساسـاً بالوداع أكثر من الإحساس بأن فردوسـاً يلوح مفتاح بابه قريبـاً في الأفق. تأتيني أمِّي

وعلى شفتيها طيف ابتسامة ودودة يلمع عبرها نابٌ ذهبي، وبادرتني قائلة: تعرفين كم سأشتاق إليكِ، لكنني اليوم أطلق سراح عصفوريّ الجميلة لتطير بجناحيها. فقط اعلمي دائمـًا أن لكِ هنا بيتـًا وأمـًا مُحبة.

تحتضنني فتغمرني بدفئها وضيائها. العلاقة بيننا بالغة العمق، قليلة الحوار. ثمة تواصل بيننا استغنى عن فائض الكلام، يصل لنا، بوضوح، ونتفهمه برغم خلوه من الألفاظ.

بحنانها وعباراتها المقتضبة، وتلك الرسائل التي تُلقي بها إليّ من حين لآخر، رسائل متواضعة، بسيطة الصياغة، لكنها غالبـًا ما تأتي محددة وقاطعة.

سافرتُ، وتغيرتُ؛ كأن كفـًا هائلة مرتْ واقتلعتْ الماضي وغرستْ شجيرات من دون جذور.

(٥)

في هذي الأرض الفسيحة، الأفقَ يضيقُ عليَّ. حتى السماء واطئة.

ربما هو الحنين. ربما هي الغربة. وفي مُدن الحنين، أنتَ كثيرٌ في وِحدتك.

في بلاد تهاجر إليها بعيدًا ومرغمـًا، تحاول جاهدًا تذكر أسماء أصدقاء الطفولة، واستحضار تفاصيل حكايات تخشى أن تمحى من الذاكرة، وتحتمي من النسيان بالصور والمكالمات الهاتفية والرسائل، لكنك في النهاية تنسى الكثير الكثير.

ليس بيدك حيلة، فالغربة هي اللعبة الخطرة الوحيدة التي تدفع فيها ذاكرتك ثمنـًا لممارستها.

في المنافي الصَّغِيرة أو الكبيرة على حدٍ سواء، لا شيء يهبُ من شرفة الليل إلا الحنين.

وأنا هنا، أجلس على حافة الحياة.

في غرفتي، غرفة الوحدة والسكون، وبعد يوم عملٍ طويلٍ آخر، أتفكك، وأتحلل، فأصير سرب نساء وحيدات.

في غرف النوم والحميمية، بعض الأحياء يموتون. في غرفٍ أخرى، يواصل الأمواتُ رثاء حياتهم.

أتصفح أحيانـــًا ألبومات الصور، أرَتبُها وأهَذّبُها، وأرْضِعُهُا بعض الحنين.

أتأمل وجوه أولئك الذين ناموا في صور بالأبيض والأسود في ألبوم العائلة. الصور دائمـــًا توشوش لنا بحكاياها الخفيّة. صور الذاكرة تشبه الضيوف، بعضهم توجه إليه الدعوة والبعض الآخر يوجه الدعوة إلى نفسـه، فإما أن يلقى الترحيب أو الصد.

لا أعرف ماذا كنتُ سأفعل لو لم يكن الإنترنت حاضرًا بهذه القوة في حياتي. لا أعرف أصلاً لو كانت علاقتي بالناس من حولي اقتصرت على الزملاء والرفاق الذين عرفتهم من المدرسة والكلية، وبعض أقاربي.

واظبتُ على التواصل مع بعض رفيقاتيّ من زمن الطفولة وأيام الجامعة. كانت نيفين إحدى صديقاتيّ المقربات. درستْ الصيدلة، لكنها بعد أن تراكمتْ عليها أعباء الزوجية تركتْ عملها ومنصبها المرموق في شركة أدوية أجنبية لتتفرغ لشؤون أسرتها ومنزلها. مازلتُ أتذكر صداقتنا الجميلة ولقاءاتنا في منزليّ عائلتينا، ونزهاتنا القصيرة التي كان يصحبنا فيها عادة شقيقها الأكبر هشام. شابٌ مرح، ذو وجه صبوح وابتسـامة مشرقة. تخرج في كلية الهندسة بجامعة القاهرة، وتمكن بعد بضع سنوات من تأسيس مكتب هندسي أصاب قدرًا من النجاح.

كان بيننا إعجابٌ صامت.

سعدتُ كثيرًا حين أرسل لي رسالة، تلتها رسائل. شعرتُ معه بالألفة والطُمَأنينَة. بعد سنوات،أرسل لي طلب إضافة على فيسبوك، فرحتُ بها لأنها ستمنحنا فرصةً لتواصل أكبر. لا أعرف كيف حدث هذا، لكننا تقاربنا بمرور الوقت، حتى صرتُ لا أخجل من الكتابة له والحديث معه عن هموم الحياة والعائلة وحكايات العمل، وكل ما يمتلئ به صدري من أمور.

ببطء، أخذ يَغرس سنابل الضوء في بستان طمأنينتي، علّه يصير في روضتي مقيمـــاً

ذات يوم، زقزق صندوق بريدي الخاص على فيسبوك برسالة له أربكتني بقدر ما ضبطتُ نفسي متلبسة بالسعادة لتلقيها.

كنتُ قد غيّرتُ صورة بروفيلي قبلها بيوم واحد، حين وجدته قد كتب لي رسالة خاصة تقول كلماتها:

في أي ثوبٍ، أنتِ الشهقة الخاطفة، حتى وأنتِ ترتدين جمالكِ فقط!

جرأته، وجمال العبارة، جعلاني أصمت ولا أعلق عليها. أرسل لي رسالة أخرى من كلمة واحدة: "غاضبة؟" أجبته: لا، أبدًا، لكن رسالتك فاجأتني.

يرد قائلاً: "تضعين سلسلة ذهبية تتدلى منها أيقونة زرقاء أنيقة مثل روحك. يا لألوانكِ التي تحتكر الجمال"!

أواصل صمتي. في اللحظات الحاسمة والمواقف المؤثرة، يلازمنا صمت التماثيل. نراقب ما يجري كما لو أنه يحدث لغيرنا.

يُعاجلني برسائل خاطفة وآسرة:

"تكلمي يا سارة، فالكلام جسرنا الوحيد. تكلمي، فإن صوتَ تنفسكِ يُعذب هواءً يتحرق شوقـــاً إليكِ"

خرجتْ كلماته كسربٍ مهاجر من قلبه نحو سماء قلبي.

يمر الكلام من ثقوب الوقت، حتى تخاله أضعف من أن يصمد، لكنه كالأثير، يُفتت بأناةٍ حجر الصمت، حتى يمنحه الحياة.

أراوغه كثيرًا.

أهربُ منه في أزقة الحياة وحارات الوجوه، لكنه يواجهني فجأة عند كل ناصية كأنه عدو لئيم.

الشوق.. يهدد سكوني الهش.

أصير مثل فرشاة أسنان أرهقها أحمر الشفاه، فكرهتْ هشاشة البياض.

من أين تأتي امرأة في الأربعين بالقوة اللازمة لكي تحِبّ؟

ربما من قلبها الذي لم يبلغ العشرين.

هناك دائمـًا شغفٌ ولومٌ وتبكيت ضمير.. مزاجٌ رائقٌ أشفٌ من البلور، وآخر متكدر مثل ساقية مهجورة.. رسائل البرق في دمنا، وسائلٌ غامضٌ يتدفق في الشرايين ويتسلى بالأعصاب.. مذاقُ التوت ولُذَعُ النبيذ.. كل التوق القاهر وبعض الغضب الظاهر.. ونسميه الهوى؛ لأنه حيلتنا الوحيدة لممارسة الحياة!

يا للكارثة، يبدو أنني أحِبُّ فعلاً هذه المرة!

أسقط في الحُبِّ كمن اكتشفتْ فجأة أنها حامل من رجلٍ عرفته ليلة واحدة، من دون أن يسعفها الوقت لتسأله عن اسمه.

حدث ذلك دفعة واحدة.. أحببتُه وانتهى الأمر. ليس أكثر أو أقل. هذا كثيرٌ في حد ذاته على روحي الصغيرة المشردة.

أصعبُ ما في الحُبِّ، أننا لا نعلم لماذا هو هذا الشخص بالذات الذي أُغرِمنا به. يبدو الأمر مثل الحنين الذي يجتاحُ الأشجار حين تغيب الرِّيح.

أثملُ بالتفكير به والطريقة التي يلاطف فيها مخيلتي بكل الشخصيات والأدوار التي تناسب الروايات الرومانسية والمسرحيات الكلاسيكية.

لسان حالي، أنا المرأة الكاملة الحيرة، يقول له: ليتني أمتلك حياة أخرى كنتُ هربتُ بها إليك.

بعدها، لم يتراجع عن المساحة التي اكتسبها، حتى وإن ظلت العلاقة بيننا مجرد طيف حلم بعيد. أعترف؛ إنه يجيد كلمات الغزل ويوقظ في إحساس الأنوثة. علاقة عن بُعد وغير مشروطة؛ هذا هو الجميل في الأمر. الصعب في حكايتنا هو أنها انجذابٌ في العالم الافتراضي. كلانا متزوجان ولدينا أطفال، لكن ذلك المغناطيس العملاق الذي يُسمى الغرام، له قوانينه الخاصة.

يُهديني وردة حمراء افتراضية، ويرفق معها كلماته:

"عن سطوعكِ المدهش

عن روحكِ الراقية

عن جبهتكِ المتوضئة

عن حنانكِ المفرط

عن أغنيتكِ المفضلة

عن الملائكة التي ترتاح على كتفيكِ

عن حضوركِ الذي يصير معه الضوء في كامل لياقته

عن "الأنا" الوديعة الهادئة

عنكِ أكتب؛ لأقول لكِ:

في وجودكِ، أحِبُّ الحياة؛ لأنكِ أنتِ الحياة"

تصير الأرض تحتي موجة زرقاء، وأصير قطعة خشب طافية.

هناك من ينفض النجوم خارج الليل، فتتساقط على النوافذ، وتضيء يد امرأةٍ، تمدُها لتلتقط النجمة وتمحو الليل منها بفركها بكُم فستانها. أريد أن أُبقي على هذا الحلم وأنام.

أشعر بأنه تنقصني أغنية.

أغنية تضفي على هذه الظهيرة شيئـًا من المرح. دندنة على الشفتين، ولحن أنيق، وذكريات تسحر ذاتها.

أستمع إلى صوت محمد منير. وأدندن معه بكلمات أغنية تقول:

"مهما تغيب حاضر

شايفك بعيد حاضر

أنت الحبيب حاضر"

الأغنية الجميلة ندّاهةٌ لا تُقاوَم، إذ تمنحها روحك طوعـًا وتقتطع من رصيد عمرك ليستمر دورانها في فلك ما تبقى منه. وفي شريان الأغاني، قد تنساب معاني كلمة "أحبّك" فتبدو كأطهر ما يمكن.

كم هو الحُبُّ رائع. يُبسط الأمور. يجعلنا ملائكة وطيبين. يمنحنا الشعور الأجمل.

يكتبُ لي:

"في كل مرة تقولين لي فيها "صباح الخير"، أتعثر بالشوق في يومي، فأحبّكِ أكثر

في كل مرة، أشعر أن "صباح الخير" منك تشد الأرض من أطرافها كي نقترب أكثر، حد العناق.

في كل "صباح الخير" نعومة لا تُضاهى، ووعدٌ أصدقه بقرب اللقاء.

"صباح الخير" تصير حلمنا الذي نقاوم الاستيقاظ منه، حتى أننا نتخيل رنين المنبه جزءاً من الموسيقى التصويرية للمنام الجميل.

فقط لو تقولين لي"صباح الخيرا"

لم يخلُ الأمر من مزاج متقلب. كتبَ لي في مرةٍ أخرى: كنتُ سأهديكِ صباحـًا فيروزيـًا بمذاق "بعدك على بالي"، لولا أنني تذكرتُ أنكِ على بال شخص آخر. أسوأ شعور يمكن أن تعيشه، هو أن تدس رسالة حُبٍّ في قميص الصباح لإنسان منشغل بغيرك.

ثم يعود ليكتب لي قائلاً:

"يا طبيبتي الجميلة، أعاني الأرق. كلُ شيء ينام في ظلّ الوقت إلا الحُبّ. منذ فترة، صرتُ أرى منامـًا متكررًا:

ثلاث شامات حُسن، تنام في وداعةٍ على جسد امرأة تركها الله في الدنيا حتى أعرف جمال الحور العين.

المشكلة أنني كلما ضممتُها لي في الحلم،

قالت شامة الخد في دلال: إليك عني..

وقالت شامة النهد في غنج: دعني وشأني..

وقالت شامة الساق في ضراعة: إياك أعني..

فمن أصدق أكثر؟!"

تُربكني كلماته. أوَدُّ أن أرفضها. أن أوقفه عند حده، لكن رقة حروفه تُذيبني. تخاطب فيَّ جانبـًا خفيـًا، أكتشفه معه وحده.

كم تنمو الرغبة في حَدائقِ الكلام!

الشغف هو ذلك الشغب الذي يناوش القلب ويخمش الروح بأظفار الدهشة.

كابنة العشرين؛ أسأل جاريّ روزان ونحن نحتسي عصير الليمون الطازج: كيف لامرأة أن تعلم إن كان رجلٌ ما هو الأنسب لها؟

تُفلسف الأمور ببساطةٍ متناهية، قائلة:

"إنّكِ بسؤالكِ تجيبين على نفسك. إن كانت المرأة واثقة من خيارها لما سألت"

ضميري سوط يتردد، كلما ارتكبت ذنبـًا واستحييت من الله.. من استغفاري ودعائي الطويل المُلّح. وكلما زاد الجَلدُ، قلتُ في نفسي: "يا رب، ساعدني"

ابتعدتُ عنه لفترة، لكنه عاجلني بإحدى عباراته القاتلة: يا من تصلبين الحنين، ليس كل صلبٍ بعده قيامة!

نحنُ مخلوقاتٌ بنيسة جدًا. يمكن أن نفرَح فجأةً باتصال هاتفي دام دقيقة؛ برسالة افتراضية في صندوق أزرق.. لأجل كلمة: أحبّكِ.. لقطعة شوكولاتة صغيرة كانت تسكن جيبه.. بقصيدة شعرية سرقها من ديوان ما.. لأغنية قديمة ماتت مُغنيّتها.. بوردة اقتلعها من حديقة عامة.

بائساتٌ نحن جدًا.

كان يشكو لي أحيانـًا من متاعب العمل ومكائد الصغار ومؤامراتهم الدنيئة، فأواسيه قائلة: الفاشل يعرف أنه لا يجيد سوى الإساءة؛ لذا يتفرغ لها ويفرغ طاقاته وإحباطاته فيها.

كتبَ لي ذات يومٍ رسالة خاصة على فيسبوك، شعرتُ فيها بالإطراء لما فيها من كلماتٍ تلمس القلب. اكتفيتُ بردٍ لبق ودبلوماسي، قلتُ له فيه إنني ممتنة للطفه وذوقه.

ما هي إلا لحظات حتى كتب على صفحته:

"تقول: ممتنة!

تلك التي هي عِطرٌ من الجنة"

غزله الخفيّ، حافظ على تلك المسافة التي لا تخدش حيائي كامرأة وزوجة لرجل آخر.

صمتي كان ردي الوحيد على تلك الكلمات الدافئة التي تحاول الاقتراب مني أكثر. صمتٌ يثرثر: هذا الذي يقفُ بيني وبينك، ليس الخجل، إنما أنهار من الحُبِّ تسربت على جانبي الكلام.

زاد من تقاربنا ذلك الفتور الذي أصاب علاقتي مع زوجي. ظروف عملنا التي لا تسمح لنا بقضاء وقتٍ خاص بيننا، وكذلك كثرة أسفاره لإلقاء محاضرات وإجراء جراحات هنا وهناك، امتصا نضارة حياتنا الخاصة.

لم يعد في أوردة ذراعي التي لم تتأبطه منذ أمد.. سوى اليُتم.

في غيابه المتكرر، وفتور علاقتنا، أعود كحمامةٍ مصنوعة من القماش، أنطرح بين اللُعب والدُمى، لا أبالي برائحة الصباح ولا نسمات الظهيرة، لا أنقر بصوتي نوافذ الليل الصماء. فقط أنطرح حتى يتأبّطني طفلٌ وينام بي.

وفي الصباح، أُسوِّي السَّرير، وأضع فوقه ملاءة من حرير تنَازَلَت عن مُلْكِها للغياب.

أتحسرُ، فالسرير الذي لا تقوي إضاءته الجانبية من أثر شهقات الشاهقات، تافه.

لم يعدْ الدلالُ يُدلّك حُبًّا بزيوته المعطّرة.

يتعين ألا تؤثر علينا العلاقات السيئة أو الفاترة، لكنها تفعل ذلك. من الصعوبة بمكان الهروب من الآثار السامة للصراعات المستمرة على الروح.

لماذا أقْتفيكَ أيّها الليلُ، إلا إن كنتُ عاشقة؟

عربة الليل لا تأتي بالزهور، لكنها قد تأتي بهواء مُحمّل بشوق خفيّ نعرف صاحبه دون سؤال.

عندما احتضنتُ ابني الأوسط، رامي، في مساء يوم شتوي كان فيه سمير مسافرًا، لم تتجاوز قدما صغيري حدود ركبتيّ. ينْعَسُ رامي كضميرٍ غائبٍ، وأنا أسأل نفسي: أليس من حقي أن يحتضنني رجلٌ أطول قامة مني؟!

مستيقظة، أجرُّ خلفي لحاف الليل، وأطوي ظلي المبهم في ضوء النهار المنكسر!

في الحلم، هَمَّ. انتبهتُ لصوتِ رغبته، فلما همستُ، كان قد اختفى عن ناظريّ. وأنا أُعانقُ ظلّه في المنام، كانت عِظامي تتقوّسُ مِثل أزهار. فجأة، وجدتُه أمامي ثانية، يضمني بقوة وشبق. يمر على رمال جسدي كأفعى تزحف بنعومةٍ مخاتلة، تاركة وراءها أثرًا خفيفـًا، ورعشة لا تُمحى. يتمدد فيّ كزئبق.. كإصبع شوكولاتة.. فيصهل جوعي إليه.

تَعوي الأزرارُ في احتكاكِها المُثيرِ بأجسادٍ لَيِّنَةٍ تأتي في الحُلم غالبـًا بلا رِداء.

كلما تذكرتْ حباتُ الكرز قاطفها، أمطرتْ لؤلؤًا دون سحابة وتحسستْ عصارتها الوادعة.

رغم شعوري بالذنب، فإن هذا الحُبّ أبقاني على قيد الحياة. مديح الماء قد يروي ظمأ عَطّاشَى الخيال.

وفي الحُب، قد يجتمع الاحتياج مع الاعتياد.

بدوتُ كما لو أنني تعثرتُ في "صندوق باندورا"، فسقط وانفلتت منه بعض اللعنات والشرور البشرية، وطالتني شظايا كنتُ أجتهد في تفاديها طوال سنوات.

وأنا كأس نصفها فارغ، ونصفها الآخر يحلم بالامتلاء.

كان هوس سمير بالنظافة الشخصية يدفعه إلى عدم الاقتراب مني لأيام بعد انتهاء دوريّ الشهرية. الأسوأ أنه فور الانتهاء من ممارسة الحُبِّ، كان يهرع إلى دورة المياه للاغتسال، في تلك اللحظات التي أكون فيها أشد احتياجـًا لحضن دافئ يحتويني ويربتُ على جسدي في حنو بالغ.

أحلم أحيانـًا بضمةٍ من الخلف، ويدٍ عابثة تتسلل إليّ دون استئذان، وقبلة مسروقة يباغتني بها دون أن يبالي بوجود الأبناء مستيقظين خارج الغرفة، لكنه لا يفعل.

قلتُ لسمير ذات يوم: يلزمك أن تعيد اختراع نفسك. ثمة معبر بين القلب والعقل.. افتحه.

لم يأبه كثيرًا لملاحظتي.

هكذا كنتُ أختن الليل بالحذر المفرط؛ ثم ألعن الحظ طوال النهار.

كان هشام دائمـًا هناك لنتبادل الأفكار والهموم.

مازلتُ أحتفظ بالبورتريه الذي رسمه هشام لي بالقلم الرصاص. كلما رسّم أحد صورتك ثق بأنه أحبّك؛ لأن الصورة تمرّ من القلب إلى الأعين لتصل إلى أطراف الأصابع.. والمرور من القلب يُقال له المحبة.

تحدثنا في مناسبات عدة هاتفيـًا، لكنني كنتُ أكثر حذرًا وتحفظـًا في تلك المكالمات، حتى لا تنهار قلاعي تحت تأثير طرقاته المتتالية على بوابات المغلقة. عليّ أن أعترف أنه، رغم كل شيء، يمتلك ضحكة رائعة. ضحكته ليلة كاملة.

اتصل بي ذات مرة، فقط ليقول لي: أنا الآن في مقهى الفيشاوي. المقعد الفارغ أمامي في المقهى. هو مكانكِ. هكذا أُهيئ نفسي لحُبّكِ المستحيل.

-أنت تحلم كثيرًا.

-من عجينة الأحلام نصنع أشهى فطائر الحياة. وأنتِ يا سارة، وجهكِ حديثُ المدينة.. المدينة التي بداخلي.

ألهب أحلامي بكلماته التي تشبه أعواد النعناع. يجعل التاء المربوطة في اسمي ضفيرة نور.

كأن كلماته ورسائله تهمس لي: قد يفر الرجال من حولكِ في سن الأربعين، أما أنا فأتأهب لكي أجعلكِ طقس حياتي.

ما يأسرني حقـًا هو اهتمامه بأن يحيطني علمـًا بتفاصيل حياته اليومية أولاً بأول. كل شيء يخص أيامه ومشاويره ولقاءاته، وحتى خواطره. كتب لي ذات مرة قائلاً:

"دُعيتُ اليوم إلى صلاة جنازة، صليتُها في جامع النور بالعباسية. بعد صلاة الظهر، تصادف أن كان الموتى ثلاثة. تقدمتُ النعوشُ يحملها أصحابُها على أكتافهم، وعظنا الإمامُ عِظةً موجزةً، ذكّرنا فيها بلحظة مُماثلة. رافقتُ الجنازة إلى مدافن باب النصر، تأملتُ المقابر، قرأتُ ما وقعت عليه عيناي من شواهد القبور؛ أسماءٌ وتواريخ، رجالٌ ونساءٌ، ألقابٌ وعائلاتٌ. أخرجتُ مُصحفي من جيبي، قرأتُ طرفـًا من سورة البقرة، ثم يس، ثم المُلك؛ لاحظتُ أن خاتمة يس تماثلُ فاتحة المُلك".

ظل هشام جزءاً من حياتي لما يزيد على عامين. بعدها تباعدت رسائله.

في آخر رسائلي له كتبتُ قائلة:

"تبيتُ رسائلي بلا ردٍ منك يُؤنس وحدتها ويُبدد وحشتها؛ الكلام في رسائلي كان يريد رؤيتك.. فقط. إن كنتَ توارِبُ نفسك خلف أبواب الغِياب عمدًا ليتبين لك إن كنتُ سأسأل عنك أم لا، فلا داعي أن تعود. لا أقبل بأن أكون موضعَ اختباراتك. على أي حال، تَحَرَّ جانبك الأيسر.. هل ساكنه ما زال حيـًا؟"

غابتْ عني أخباره، وسكنتني الحيرة، حتى علمتُ من شقيقته نيفين أنه تعرض لحادث سيارة مروع. دخل بعدها حالة من الاكتئاب، حتى صار شبه معتزل للحياة. أصبح مغلفـًا بوحدته السميكة.

زاد قلقي عليه، لكنه امتنع عن الرد عليّ، قبل أن تأتيني منه رسالة كاشفة:

"عندما تحطمتْ سيارتي في حادث مروع تعرضتُ له وخرجتُ منه بجروح طفيفة، شعرتُ بأنني مررت بما يُسمى "بروفة الموت" سألتُ نفسي عن المعنى.. عما سيبقى مني بعد سنوات من الكد والصد و"المقاومة" النظرية والعملية؟ هل أنا قادرٌ فعلاً على صناعة تاريخي الذي أريد، أم أنني تمهلتُ وأهملتُ وصرتُ رهنـًا لتأويلات "الآخرين" قديمـًا كنتُ أردد مقولة سارتر "الجحيم هو الآخرون"، لكن عن أي آخرين نتحدث؟ فأنا أحيانـًا أضبط نفسي متلبسـًا بالتعامل معي باعتباري آخر. إذن هذه المقولات التعميمية خدَّاعة ويجب الاحتراز منها قررتُ أن أنكمش داخل الغار. لديَّ إحساسٌ قوي بأنني قصرتُ في حق نفسي (تكاسلاً أو تنسكـًا، لا يهم).. المهم أنني أدركتُ الآن أن رسالتي تعثرت، وأنه حان وقت تأمل الذات ومراجعة النفس والتخلي عن كل ما يفنى

فهمتُ وحزنت.

الحزن جلادٌ بشع.. يضع إمضاء سياطه على ذاكرتنا وقلوبنا.

ينسحب حُبّه من دمي. ينسلّ كإبرة بخيط.. يؤلمني.

أتكورُ على نفسي في السرير كطفل أخطأ وينتظر العقاب. أجمعُ ما مات منّي، كأنني إثْمٌ حاصره تأنيب الضمير.

حزينة مثل وردة اقتُلِعَت من بستان؛ تظن أن حديقةً أخرى في انتظارها، لكن مصيرها السيئ هو آنية زهور بلون محايد، وماء لا يعني لها شيئـــاً.

نفترقُ على نحو مؤلم، وأنا التي كنتُ أظنُّ أن ما بيننا أغنية تدور بلا نهاية.

بعضُ أحلامنا تموتُ على مهل، كلوحةٍ تبهتُ ألوانها يومـــاً بعد يوم، حتى تنتهي مُعلقة بلا روح على حائط مُتَصَدِّع.

قلبي المهدمُ، كحائط ثورة، يضيق الآن ويبتعد كجزيرة عائمة.

أتمنى أن تنتهي الحياة مرة واحدة، بدلاً من ملايين المرات كل يوم.

أريد أن أهدأ، مثل عاصفة منهكة تتأمل زورقـــاً لم تُحطمه.

تخرج من صدري تنهيدة طويلة. التنهيدة هي مشروع دمعة تتخلق في المقل.

(٦)

تبدو المدينة من الطائرة، كما لو أنها منمنمات؛ مجرد مكعبات صغيرة متباعدة عن بعضها بعضـــاً، تفصل بينها طُرُقٌ متشعبة مثل الأوردة.

حين هبطت الطائرة في مطار هيثرو، أخذت أنظر حولي مثل طفلة ضائعة.

هذا هو العالم الجديد الذي ينتظرني، أنا الهاربة بأحلام طيشي.

قبضتُ على جواز سفري بقوة، ووقفت في طابور طويل، قبل أن أنهي إجراءات الوصول بسلام. التقطت حقيبتيّ وجررتهما أمامي، وما إن انفتح الباب الإلكتروني لمغادرة صالة الوصول حتى أخذتُ أحدقُ في الوجوه بحثـــاً عن وجه مألوف. أخيرًا، وجدتُ منى وهي تجتهد في التلويح لي بذراعيّها. تعانقنا بفرح وشوق؛ إذ لم أر زميلة الدراسة منذ هاجرت مع والدها طبيب العيون وباقي عائلتها إلى لندن قبل بضع سنوات.

أقمتُ معها بناءً على دعوة كريمة منها. ترحابها غمرني بالطُّمَأنينَة وقلل من ارتباكي وخوفي من غموض التجربة. شقتها الصغيرة مرتبة وأنيقة مثلها. وجدتُها تتصرف على سجيتها، وتملأ ملل الوقت الطويل بالثرثرة المرحة. امرأة طويلة القامة، بجسد مكتنز وانسيابي. تحتفظ بأغنيةٍ عريقة طويلة في جسدها، كأغنيات أم كلثوم. بنظرةٍ واحدة، تمنح الرجال شهقة الجمال الشامخ. لها

خدان جميلان وممتلئان بعصارة البهجة. تستلطف أن تعابث من صديقاتها من لا يستنكفن معابثتها ولا يرون في اقتحامها لعزلتهن تطفلاً مكروهـاً.

بدتْ لي شخصية مستقلة. لديها عملٌ جيدٌ كمترجمة. لا تشغلها كثيرًا فكرة البحث عن رجل. ترى أنه سيأتي يومـاً وستعرفه على الفور. لا تؤمنُ بالارتماء في حضن أول رجلٍ تنسبُ إليه لاحقـاً كل إخفاقاتها وحظها العاثر. تقول لي بثقة: نحن سكّان أجسادنا. لا نفتحُ الباب إلا للعاشق الشَره؛ لتكون وليمته؛ لنصير ضيوفنا فيه.

كنا نتحدث عن الرجل المثالي الذي تحلم به، فقالت لي: هو ذلك الناضج الذي يحترم عقل المرأة قبل أن يشتهي جسدها، وليس ذلك الذي يهجر عاهراته ليتزوج بامرأة تكون أمـاً لأولاده، دون أن يدرك أنه في حقيقة الأمر هجر نساء يعرفهن، فقط ليتزوج امرأة يجهل تاريخها. هو وحظه!

لا يسعني إلا أن أؤمِنَ على كلامها، لكنني أضيف:

- ما يهمني هو ألا يكون متسلطـاً يقيد حريتي أو يفرض آراءه على مظاهر حياتي. لن أسوم على حريتي مقابل خاتم زواج.

- إذا كان شريككِ يخطط لاعتقال حريتكِ بخاتم فهو أمرٌ مزعج وغير مريح على الإطلاق. يجب أن يخطط لإسعادكِ والاستماع إليكِ جيدًا وتعزيز ثقتكِ في نفسكِ، حتى تتأملي يدكِ كل فترة وتُقبّلي خاتمكِ المضيء.

تعرفتُ من خلالها إلى صديقة أخرى هادئة الطباع؛ لا تنتمي رولا لصخب الثديّات. هي قماشة أخرى؛ قماشة قاومتْ تسرب العفن. تمتلك حاجبين فيهما كبرياء. كاذبٌ من قال إن شعرها المسترسل أسود أو بني.. هو بين الفرضيتين، لا يُريح الفضول. بالرغم من أنها جميلة، ودقيقة، وجادة، ومكافحة، فإن أمانيها المشروعة، بأشواقها العذبة، تهشمت، المرة تلو المرة،

على صخرة الواقع القاسية، مما بدد الإشراق في عينيها. غلالة الكدر الزاحفة على عينيها، غالبـًا، تنسحب أمام لمعة تحدٍ تبرق في نظرتها، معبرة عن عزيمة نابضة بالحياة.

تحِبُّ شابـًا وسيمـًا من كل قلبها، لكنه يبدو غير مهتمٍ بها رغم محاولاتها لجذب انتباهه. تقول لي: كم بُحّ الصوت لكي ينصت ربان الموج! حين يطمس الله على قلب أحدهم، لا يعود يرى أو يميز الحُبّ الحقيقي عن غيره. لا يُوسُفَ اليوم ليرتدّ هذا الرجل بصيرًا.

- انسيه. هناك ملايين غيره يتمنون امرأة جميلة مثلكِ.

- ظهر في حياتي دون تخطيط.. دون إنذار. أحببتُ فيه كل شيء، حتى اعوجاج أسنانه وعدم كمال ضحكته. توالت الأحداث ونبتت المشاعر بسهولة وتلقائية وهدوء. أنا عاطفية جدًا؛ إن قال لي "أحبّكِ" قد أحبل مباشرة.

يُضحكني تعليقها، ويدهشني في آن.

تشرب مني نَعْنَاعَها الدَّافِئ، وتنصحُها لمرةٍ أخيرة:

- لا تطاردي سرابـًا. لا فائدة ترجى من الانتظار. كان سيتغير الكثير وتصبح الحياة أجمل، لو أنه أدرك معنى تجاهله لفتاةٍ مغرمة تنتظر. على أحدهم أن يندم؛ لأن فتاة رائعة قد ضاعت منه. انسلت من يديه، من دون أن يحاول التمسك بها أو حتى شد معصمها لتنتبه إليه. يتركها مثل أبله، بفم مفتوح.

- كم أنا مُتعَبة، كأن روحي تركض خلفه وتلهث. سأنتظره انتظار شيء لا يبدو حدوثه يقينيـًا. يا إلهي، لا أريد أن يطول انتظاري حتى تغزوني التجاعيد ليصير وجهي مثل حبة عنبٍ جافة وأصبح عجوزًا بشارب!

أحاول تجنبَ صديقة أخرى من رفيقات مني، وهي ميساء؛ رغم خفة ظلها، فإن ميساء ذات خيال وارف تزج به في الحكايات التي تُرددها. تقص حكاياتٍ

ملفقة تصطنع فيها السذاجة، كما لو أن راهبة تسكنها. جربتُ ذلك بضع مرات، كانت آخرها نزهة في شوارع المدينة الجديدة بالنسبة لي. اكتشفتُ معها مدى تهافت فكرة استكشاف مدينةٍ بمساعدة وسيط؛ لأن الأخير لا يملك إلا أن يكون ذاتيـًا في تعليقاته وآرائه، التي يخضع فيها معرفته بالمدينة لأبرز تجاربه معها. تتوارى الحقائق، ويطل الانطباع.

كانت تمتلك عقلَ فرشاة طلاء، وثقة لا تنقصها الحماقة.

في إحدى ليالي الثرثرة، أحكي لصديقتي الجديدة رولا عن علاقتي مع عادل، وانتقالي للإقامة هنا كي أكون قريبة منه. أقول لها: "حاولت أن أحِبَّ رجلاً عاديـًا ولم أستطع. المثقفون يبهرونني دائمًا فقط. لو أنهم يفعلون ما يقولون"!

رفعت حاجبيها وهي تقول لي في جدية: اذهبي للقائه، وقولي له كل ما يعتمل بين جوانحك. نحن قد نعيش حياتنا كاملة في انتظار اعتراف يليق بمحبتنا.

تكملُ في جذل: أنتِ شجاعة.

شجاعة بلا شكّ، ولعلّني طائشة أيضـًا.

أتصل به هاتفيـًا، وأخبره بمفاجأة وجودي في المدينة، فيحدد لي موعدًا للقاء في مقهى شهير. تنصحني منى قائلة: ارتدي له فستانـًا أسود، يُفقده صوابه.

تضحك وهو تقول: أعرفُ أرملة عند وفاة زوجها ارتدتْ الأسود وظلت ترتديه إلى الآن، ليس وفاءً للأموات، ولكن حتى لا يكُف الأحياء عن الدوار.

أعمل بنصيحتها. أُهيئ نفسي للقائه. أتخير الفستان. أدور به أمام المرآة. أدير أغنيات فيروز الناعمة، وأفكر بالمشروب الملائم لمزاجي، وأحلم بتفاصيل اللقاء.

أضع أساوري وثوبي الأسود وقلقي، وأخرج للموعد وأنا جدُ مضطربة.

حين نلتقي، أعانقه، وأدع شعري في رياحٍ غير مرئية يهب أمامه هامسـًا له بأسراري. ألاحظ أنه يعانقني بآليةٍ وفتور. جلس وظهره منحنٍ كقوسٍ هائل. حكى لي عن حياته الجديدة وصعوبات التأقلم التي واجهها. يصمتُ، ثم ينظر في عينيّ وهو يُلقي بقنبلةٍ في وجهي قائلاً: ارتبطتُ بزميلةٍ لي في الجامعة.

يصعقني بعبارةٍ واحدة.

"ماذا؟ هكذا ببساطة. ارتبطت!

كيف أغفر لك وأنت حرمتني من إنجاب أطفالي الذين لطالما حلمتُ بهم. حرمتني من شراء الملابس الدافئة لهم؛ من الذهاب بهم إلى المدرسة؛ من دس الحلوى في حقائبهم وانتظارهم.

كيف نسيتَ اشتياق امرأة وقفت مرارًا تنتظرك لفترة طويلة في شارع ميت وهي تلملم نظرات العابرين؟!

هل تعلم أني تزوجتك منذ أول رعشة شعرتُ بها معك.. منذ قبلّتك وتحسستَ جسدي؟"

ينظر حوله ويراقب ردود فعل باقي الزبائن؛ ثم يحاول تهدئتي قائلاً: نحن صديقان.. وسنبقى كذلك.

أحدجه بنظرة غضبٍ واحتقار، قائلة: آه.. أنت الآن تريدني أن أُحِلك من أي التزام. حسنٌ.. مع السلامة!

أنهض بسرعةٍ وسط غيم دموعي، وأسحب حقيبة يدي. أتركه غارقـًا في ارتباكه.

أسير لفترةٍ على غير هدى. ضاعتْ مني وجهتي، وفقدتُ بوصلتي. ضحيتُ، لكن لمن لا يستحق.

هذا احتراقي الأخير. تناثرت أشلاء روحي في زوايا رطبة، حين أفلتت أصابعكَ العابثة قلبي الأحمق، ليتدحرج، ويختفي في غياهب العدم.

يُلاحقني بالمكالمات الهاتفية والرسائل النصيـّة، لكنني أمارس معه الصدود والجفاء بما يليق بكرامتي ونذالته.

أكتب في دفتر يومياتي الأزرق كلمات تشبه الفضفضة:

"هذا الهواء الذي بيننا، وفيٌّ للمسافة والغياب،

فلا تطلب منه أن يلتحم.

هذا الهواء الذي بيننا، وفيٌّ لجُرح الحكاية الناقصة،

فلا تنتظر منه أن يلتئم.

لا تجدف نحوي، فنحن نسكن ذات المرآة المكسورة، لكن على ضفتيّ الشرخ.

نحن القريبان جدًا و البعيدان أبدًا"

نفترق، وتنتهي الحكاية التي ما حسبتُ يومـًا أن مثلها ينتهي.

تأخذه امرأة أخرى لا تشبه أحلامه ولا تفهم مزاجه، ستُنجِبُ منه طفلاً جميل الطلعة كان من حقي.

أصير مثل شجرة تُعرب عن إرهاقها.. فتنكسر!

كانت أُمّي تزعج حين أُسقِط آنية؛ تظل تتساءل: ما بال يدكِ الرخوة؟ ويشهد هذا السقوط أخي حسان والجارة اعتماد، التي لا تكاد تبرح منزلنا. لكنّ أحدًا لم يلتفت البارحة لتهشم قلبي. كنتُ وحيدة، حتى من لوم الآخرين.

لا عِطْرَ في زُجَاجة القلبِ التي سقَطَتْ علَى الأرْض. لا أحد، وأنا التي كنتُ أحسبُ أن قلبي فندقٌ مزدحم.

أحاول أن أنسى كل شيء، لكن النسيان شوكة في حلقي.

نحن النساء إن لم نجد ذلك الرجل الذي يستحق الحُبّ، فإننا نحِبُّ ذاك الحُبّ الذي نستحقه من رجل غائب.

أحمل بعده صليبًا خشبيًا على عنقي وأمضي، على دروبٍ متشابهة؛ على طُرُقٍ لا توصل إليه، لأناس لا أراه بينهم، لأشياء لا تحمل رائحته، حتى إذا ما أضناني النسيان جلستُ على جانب الطريق وأسندت صليبي وحالي إلى جدار متهالك، وقلتُ: هل لي من منجاة؟

والمنجاة أنت، لولا أن محبتي هانت في عينيك.

كانت صديقاتي يقلن إنني امرأة قوية قادرة على أن تهزم أغلب الرجال.

رجلٌ واحد أحببته كسرني.

لم يهزمني، بل كسرني!

في يأسي الرقيق، أسحق سجائري في رماد المنفضة، وأتساءل عبر الخراب المحيط بي والدموع. لو أن لك توأمًا يشبهك في ملامحك وطباعك ويحبّني؟

بعدها أضحك من رداءة الفكرة؛ ثم أستأنف البكاء.

أنام لساعاتٍ إن كان هناك حدثٌ أحاول تمريره. أفضل أن أصحو لأجده قد حدث؛ أصحو لأجدني أمام أمر قد وقع، ولا حيلة لي فيه. هكذا أتحايل بالنوم لأنجو من فخ الأحزان.

لم أعد أستيقظ إلا منهكة؛ يقتلني عدم اليقين، وتنقض عليَّ الهموم الشخصية وتُمكنها مني مناعتي الضعيفة.

الآن أعرفُ أن العاشقة تظل متعلقة بالحُبِّ الأول مثل نهر مشدودٍ إلى شفة الميناء. تبقى متذكرة لهذا الحُبِّ مثل عشبٍ يحتفل بخضرته، لكن هل يغور الماء فيندثر الميناء، ويتندر العشب على صحراء لونه الذابل؟

هذا هو سؤال الزمن والمحبة القاسية.

كم أوَدُّ أن أعيش لاهية كدُمية، أنا الأنانيّة العابرة في الحياة؛ أهشُّ غيمة الحيرَةِ، وأطردها إلى الضَباب، حتّى لا أرى ما يُقْلقني.

مركز التسوق هنا أكبر وأبهى مما يمكن استيعابه. تُهتُ فيه رغم كل اللافتات الزرقاء اللون التي ترشد إلى الطوابق المختلفة وأماكن المصاعد ودورات المياه. أكره أن يهزمني الغرور.

وكأي امرأة، أحِبُّ الرقص، والنزهاتِ الطائشة، والتسكع في أروقةٍ وأمام محال خُلقت للمتهاديات مع أحبائهن.

أسير عادة بخطوات واسعة، أحمل حقيبة قماشية وأرتدي صندلاً جلديـًا، نظرتي بعيدة وقلبي قريب، يسير بجواري.

استوقفني محلٌ يضع على واجهته فراشات محنطة بأحجام وأشكال مختلفة. تبدو هذه الفراشاتُ المُحنّطة خلف لَوحٍ زُجاجيٍّ مثل ابتسامات مودِعة.

هذه السلالم الكهربائية بكل برودة أجسامها المعدنية، تبعث في نفوسنا إشارات دافئة. هل هي تجربة رؤية الآخرين من علٍ، أم أنها متعة الوصول؟!

كثيرًا ما كنتُ أنتقي مكانـًا قصيـًا في مركز التسوق الذي يحظى بزيارة مني، أطل منه على طابق بأكمله. أجلس هناك، إن وجدتُ مقعدًا، فالمولات لم تؤسس لراحة الزائر، أجلس لأراقب الناس، متبضعين أو متسكعين، صغارًا أو كبارًا. متعة ما بعدها متعة مقارنة انطباعات حشود المارين أمام واجهات المحال؛ عيون تشع منها الرغبة المحمومة، وأخرى الأسى الشديد، وثالثة الغضب وجلد الذات فالحسد، وعيون تطل منها السخرية وخفة الظل.

هذا رجلٌ يقضي وقته يُحَدِّق في فتاة ذات قوام ممشوق، وهذه امرأة لا تبرح مكانها لدقائق طوال مشتهية أطقمـًا ثمينة مِن الكؤوس والأطباق، وتلك فتاة شابة تتقافز عيناها بين عشرات الأحذية والحقائب من العلامات التجارية الشهيرة، وذاك طفلٌ تَسَمَّرَ أمام جهاز إلكتروني جديد يحمل ألعابـًا لا حصر لها

عثرتُ على شقة بإيجار مناسب، لكنها في ضواحي المدينة. المترو يحل هذه المشكلة.. والحافلات العامة بديل آخر، لكنه ليس أفضل من المترو، الذي يبدو لي أهدأ وأكفأ. أكثر ما يميز وسائل النقل العامة هو حيز الصُدفة فيها. تلتقي مع أصدقاء قدامى ومعارف وأقارب وربما حُبّ حياتك، داخل هذا الجسم المعدني الذي يتحرك فوق القضبان أو أسفلت الحياة.

كل يوم آخذ معي كتابـًا. الآخرون يفعلون أيضـًا نفس الشيء. أتركه ينامُ في حقيبتي بضع دقائق إضافية، حتى أسمعه يتقلب، أو يتثاءب. أخفف من حركتي وانزاح إلى آخر المقعد، وأخرجه لأطالع صفحاته وأغرق بين السطور.

حزنتْ مني كثيرًا حين أبلغتُها بأنه حان موعد استقلالي في المسكن. طيبتُ خاطرها بوعود عن لقاءات متكررة في نهاية الأسبوع، وثرثرة لا تنتهي على الهاتف عن كل ما يستجد في حياتي.

مسحتُ بيدي على الأريكة الطويلة التي اعتدتُ النوم عليها عندما يداهمني النعاس. توسدتُ يميني بعد أن وضعتُ أقراطي اللؤلوية على طاولة صغيرة مجاورة، وغرقتُ في نوم عميق.

في شقتي الأولى، سرعات ما شعرتُ بالألفة. مساحتها واسعة رغم تواضعها، وضيق المدخل. أخشابها العتيقة تمنحك تلك الطُّمَأنينَة التي لا تُفسر. تشعر أن صاحب البيت بناه بيديه العاريتين. الغرف مريحة لا تفتقر إلى الحميمية، كما لو أن في كل غرفة اثنان يمارسان الحُب. النوافذ تتهامس ليلاً حتى يغازلها ضوء النهار، أما نافذة الصالة فهي تطل على حديقة صغيرة بها عشبٌ هامس، وزهورٌ مخلصة لألوانها الزاهية، ومربعٌ حجريٌ يتألف من القرميد.

الليل هنا طفلٌ يتنفس بانتظام.

بعد نحو أسبوع، استيقظتُ من نومي، وأخذتُ أعتصر ذاكرتي بحثـًا عن لون طفولتي.

مَلينَة هذه الأرض بِخطوات المُهاجرين وأرواح المُتعبين، حَتى أني لم أجد ما تَطأ عليه قدماي.

أفضلُ استخدام المترو وسيلة للتنقل. السيّارات خطأ مطبعيّ. يمتد خطّ المترو طويلاً كسطرٍ أبديٍ باتجاه الحنين.

الكتاب حاضرٌ في وسائل المواصلات؛ الجميع لا يزال يحمل كتابـًا أو جريدة أو ربما يقرأ من على الآيباد أو الهواتف الذكية.

هذه المدينة تمنحك الكثير غير التسكع في الأسواق الواسعة المتكررة ببلادة؛ النوَافِير الصغيرة، والظلال الوارفة، والمقاهي التي تتنسم الحرية وتتذوق المتعة.

المتاحف هنا تفترس الخيال. زرت متحف تيت مودرن للفن الحديث أكثر من ست مرات، وفي كل مرةٍ كنتُ أهز رأسي في أسى حين أغادره أو أراه يغلق أبوابه، ليتسلل الصمت والعتمة إلى المكان.

تقاتلتْ نبضات قلبي على رؤية لوحات بابلو بيكاسو وبول كلي وسلفادور دالي وفان غوغ ورينيه ماغريت.

المسارح المدهشة بعروضها وديكوراتها وموسيقاها، ونوادي القراءة، وثقافة مجتمع يحترم قيم النظام والانضباط، ويدرك أهمية احترام الحقوق والحريات على حد سواء، ويُعلي من شأن الثقافة بمختلف أشكالها.

كل هذا وأكثر يجعلني أفكر في أنك قد تستورد كل مواد الاستهلاك إلا الحضارة؛ صعب استيرادها في طائرات خاصة.

هنا، يلتقي القادمون أو النازحون أو الهاربون من الفقر والعوز والبطالة في قراهم أو حتى مدنهم المكتظة. يرتحلون منذ عقود إلى مدن النور.. أو هكذا يقولون، حيث فرص العمل أو التعليم والصحة كلها تتحملها الدولة أو بعضها حتمًا.

من الجنوب إلى الشمال يهاجرون، وعندما يحطون برحلاتهم ينبشون تلك المدن شبرًا شبرًا؛ يتجولون ليتلاصقوا معًا.. ربما بحثًا عمن يشبههم أو ربما حنينًا لذلك الوطن الذي لم يعرف كيف يحافظ على أبنائه فرماهم للبحر والمجهولين. عندما يستقرون يُكوِّنون أحياءهم الخاصة.. عالمهم الذي يعيدون صياغة تلك البقعة ربما لتصبح شبيهة بالوطن الذي رحلوا عنه. يتمسكون به وقد يرفضون مجتمعهم الجديد، رغم أنهم سعداء بالحرية وبعض رغد العيش الذي يوفره الوطن البديل.

يعيشون ازدواجية تبدو أحيانًا وكأنها شكل من أشكال الفصام.

تتجول في أحيائهم في لحظة تتصور أنك لم تغادر ذاك الشارع الضيق والمترب في تلك البلدة البعيدة... المحال بلافتات بلغات مختلفة من الأوردو، للعربية، للفارسية أو الهندية.. لا شيء باللغة الأم لذاك البلد الذي نزحوا إليه.. نقلوا عالمهم إلى هناك بكل تفاصيله.

قالها ابن خلدون يومـًا: "المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب"

هنا الاقتداء لا يتعدى حدود الجغرافيا، لكن التابعين يبقون عادة أسرى التاريخ.

(٧)

كبر خالد ورامي ووليد بعيدًا عني.

أشعر أحيانـًا أنني طبيبة ناجحة على حساب دوري كأم ناجحة.

أبذل قصارى جهدي لرعاية أولادي الثلاثة، لكن الأمر ليس بالسهولة التي قد يتصورها البعض، بالنظر إلى مهام مهنتي الشاقة.

كبر الأبناء، وزادت مسؤوليات رعايتهم ومتابعتهم عما كانوا صغارًا. لكل مرحلة عمرية لدى الأبناء مهام ومتطلبات.

خالد، على وجه الخصوص، صار رجلاً. استقل عنا بشكل واضح منذ التحاقه بالجامعة. محل "الأنا" الوديعة الهادئة الباحثة عن صدر يحتضنها ويحميها، ظهرت "الأنا" النهمة التي لا تنق إلا في ذاتها.

كنتُ قبل سنوات قلائل، أسمع ضحكته وهو يتعثر في حذائه ماشيـًا في حديقة المنزل. ضحك الأطفال هو استجابة السماء لصلاة الشمس. خطواته الصغيرة نبتت فوق العشب. تركتُهُ يفرد جناحيه، وغالبت أمومتي وطبيعتها المسيطرة. كانت نصيحتي الوحيدة له هي: يجب أن تحذر وتبالي.

فكرتُ لوهلة في التقاعد المبكر، ثم صرفتُ النظر عن الفكرة.

لم أكن أتخيل بأي حال أن يأتي يومٌ أكتشفُ فيه أن أمومتي قد تهزم شغفي بالمهنة.

المهنة لم تحزم أمومتي فقط؛ إذ يبدو أنها طمعت في استغراقي في العمل، فأخذت تزحف على اهتمامي بمظاهر أنوثتي. اكتشفتُ أيضًا أني لا أتمتع بذوق خاص في الملابس. لو اشتريت، أبتاع "الأنسب" ثمنـًا وليس الأجود أو على حسب اللون. لم أعد أتأنق في اختيار الألوان.

في استراحة الغداء بمكتبي، أفض غلاف قطعة شوكولاتة. أقذف الورقة المتغضنة ككرة في الهواء، ثم أتلقفها أكرر المحاولة فتسقط على الأرض. أرفعها وأرميها في سلة مهملات مجاورة.

عشقي للشوكولاتة بلا حدود. يتحسن معها مزاجي.

لاحظتُ بعض التهدل على بطني، وأصبحت معظم ثيابي غير مناسبةٍ لمقاسي الجديد.

صرتُ شجرة ما لم تعد تبالي بما تحمله أغصانها.

أنظر في المرآة، وأحدثها قائلة: أيتها المرايا، لا تسرقي ملامحي.. فقط أهْدِني ملامح أجمل!

أوَدُّ أحيانـًا أن أضرمَ النار في ذاتي القديمة. لا حاجة بي لها، إن كنتُ سأتمرد على حياتي أصلاً. أعتقد أنني يمكن أن أكون امرأة أخرى تشغل وقتها بالتسوق، وأحاديث النميمة، وبمشاهدة الأيام تمرّ

"كيف أنتِ؟"؟

يسألني سمير في المحادثات أو المكالمات القصيرة المتعجلة بيننا، في تلك الأحاديث الساذجة التي أسرق دقائقها منه وسط انشغاله الذي لا ينتهي. أجيب باستسلام "ماشي الحال"

كم من المرات سألتُه عن أحواله؟ كيف كان يومه؟ لا أذكر. هو أيضـًا لا يسألني عادة هذا النوع من الأسئلة، وإن سألناها لا ننتظر إجابة عادية. ندرك

كلانا أننا بخير وأن الأمور على ما يرام في كل الأحوال. علّمني في أحاديثه ومكالماته أن أتخطى مرحلة السؤال المتكرر "أكلت؟" من الطبيعي أن آكل و أنام وأتنفس، ومن الطبيعي أن تسير الأمور على ما يرام.

صار حديثنا كله مقتضبـاً، بلا مقدماتنا، تمامـاً كما هي حياتنا.

ينكفئ كلٌ منا في شأنه وعمله، ويعتذر للآخر يبرر هو على الأقل انشغاله بأنّ هذا في نهاية الأمر لنا جميعـاً.. وأعذره.

أعرف أن طبيعة عملي أنا وسمير تجعل وقتنا الخاص محدودًا، ولا تسمح لنا بالجلوس مع الأبناء لفترةٍ كافية. أحاول تعويض ذلك بمتابعة أحوالهم والاستفسار عن فروضهم المدرسية والسؤال عن أصدقائهم الجدد، لكنني أعلم أن هذا جهد المُقِل.

لم يكن أمامي سوى أن أترك إنارة المنزل مضاءة كل ليلة لأوهم الجيران والسيارات المارقة بسهراتٍ عائلية لا تحدث غالبـاً، وبأن العائلة لا تزال عائلة.

حياتي تتسرب من بين يديّ مثل الماء.

في مصعد المستشفى، يشردُ ذهني أحيانـاً، وأسمع صوتـاً داخلي يقول: أيتها المصاعد العملاقة، لم لا تأخذي حمولتي من التعب والأسى، وتصعدي بها إلى سماء لا تُمس؟!

في مكتبي، يتصاعد بخارٌ خفيف من فوق إبريق القهوة، وأنا أناشد الطقس البارد أن يُبقي لي الفنجان ساخنـاً حتى آخر رشفة.

نحن دائمـاً في منتصف الطريق لا نهايته.. أو هكذا نريد أن نعتقد!

تُدَاعِبُني الممرضة المرحة سوزان قائلة: واصلي عملك. في كل الأحوال، ستخسرين أولادك حين تختطفهن الساحرات الشريرات واحدًا بعد الآخر. لن

يبقى في المنزل سوى قططكِ الأليفة التي تتكوم عند قدميكِ كالكرة وتُمسِّدين على ظهورها في أوقات الفراغ.

أضحكُ على تعليقها الأمومي. الضحكة الصافية تفتح لنا أبوابَ كونٍ كامل من السعادة. هي امرأة عفيّة متينة العود، تنشرُ روحُها البهجة الدائمة.

كلما رأتني مرهقة، سمحتْ لنفسها بأن توصيني بأخذ إجازة أسافر فيها مع زوجي إلى مكان بعيد، كي نجدد حياتنا ونستعيد طاقاتنا الغائبة. تغمز لي قائلة: خذي إجازة.. واستمتعي. اجلسد له احتياجاته. العلاقات الحميمة ستمنحكِ انتعاشـًا، وستجعل زوجكِ في حال أفضل. انطفاء الغرائز، أفظع جرائم الزواج.

أرد بخيطٍ من حياء قديم، قائلة: يكفيني أن زوجي وأبنائي الثلاثة بخير. ابتساماتهم تبدد الضجر المقيم في روحي.

تحكي لي بطريقتها المضحكة قائلة:

اعملي بنصيحتي. قرأتُ ذات مرة عن تنظيم النساء في مدينة صغيرة تدعى باراكاوس في كولومبيا إضرابـًا عن معاشرة أزواجهن بغية المطالبة بإصلاح الطريق المؤدي إلى هذه المدينة الواقعة في منطقة نائية جنوب غربي البلاد. الإضراب آتى أُكله؛ إذ استؤنفت أعمال إصلاح الطريق الوحيد المؤدي إلى باراكاوس، وتتحسن الأحوال بعد أن كان الانتقال من باراكاوس إلى أقرب مستشفى يتطلب حوالي ١٤ ساعة.

مرحها لا يمنعها من البوح لي في فترات الاستراحة القصيرة في كافتيريا المستشفى عن علاقتها السيئة بزوجها سيء الطباع.

تقول لي: هرمون الرومانسية هو نجم الشهور الأولى للعلاقة. بعدها تفرز أجساد الذكور المتزوجين حديثـًا هرمونات أخرى أهمها الفظاظة، وربما

الكذب. أعرف أنه يقيم علاقات مع أخريات. حدس المرأة لا يخطئ. ابتعدتُ عن صديقة لي، شعرتُ بأنها تلاطفه أكثر من اللازم كلما كانت في زيارة لنا. متزوجة، لكنها، بروح لا ينقصها المكر، تُكفر عن أعمالها السيئة بالضغط على زر Delete.

ربما كان رهانُ آرثر على كوني طيبة لدرجة قد أتعاطفُ فيها مع مأساة امرأةٍ تمضي شهورًا عدة في التخطيط لسرقته مني، قبل أن تكتشف أن علاقتها به ليست سوى رقم جديد يضاف إلى قائمة الخيبات المتعددة في حياتها.

تستفيض في البوح:

من المطبخ، كنتُ أراقب آرثر قبل يومين، وهو يسأل ابننا براد، ذا الستة عشر ربيعـًا: "كيف تراني أمّك؟" أجاب الابن بصدق "إنها ترى أنك أسوأ شخص قابلته في حياتها" تقبل زوجي الأمر ببلادته المعتادة. تجلى ذلك في ابتسامته، ونظرته؛ مسحة خفيفة من الأسى، مع إقرار بأنه كذلك، فضلاً عن نوع من الرضا، والتلذذ بأنه كذلك.. إنه الرجل السيئ، المعجب بمساوئه.

أواسيها بربتةٍ على الكتف وحضن يخففُ من ألمها الخفيّ.

هناك تفاصيل يومية أوهن من بيت عنكبوت، لكننا نبقى عالقين في أسرها، فلا تغادرنا إلا بالموت.

في البيت، ألاحظ أن اللوح الممغنط الذي تضع عليه العائلة تعليقاتها الطريفة ومواعيدها الجادة، يمتلك من "الجاذبية" ما ترق له كل القلوب الرائية.

أتوضأ وأفتح كتاب الله، وأتلو ما تيسر من آي الذكر الحكيم. ينشرح صدري قليلاً.

أقرر الخروج والتنزه في الجوار. أسلِمُ نفسي لقدميّ وأرتق الطريق بالمشي الطويل. أشعر براحةٍ غامرة كلما سرتُ في تلك الأرض التي تكسوها الخضرة،

لون الطُّمَأنينة. تعزف الطبيعة مقطوعات موسيقية بخفيف الأشجار وتغريد العصافير. موسيقى تضبط إيقاع الروح.

في هذا الوقت من السنة، تزهر شجرة أزهار الكرز، أو ساكورا باليابانية. تتفتح تلك الأزهار، فتنشر شذاها مصحوبـًا بلونها المبهج.

ما أجمل الخالق وما أعظم آياته في الكون!

اللهُ عُمران الروح؛ اللهُ هندسةُ الوجدان؛ اللهُ ميزان الضمير؛ اللهُ وضوحُ الطريق؛ اللهُ سكنُ من لا سكن له؛ اللهُ سندُ من لا سند له؛ اللهُ قريبُ من لا قريب له؛ اللهُ وليُ من لا وليَ له؛ اللهُ رفيقُ من لا رفيق له؛ اللهُ هو الله.

أتلصص على وحدتي هذا المساء. وحيدة، أقود عربة أحلامي وسط الأشجار دون رفيق بجانبي. كم غدتْ أحلامي مذنبة لبراءتها!

تصلحُ حياتي لكي يستنسخ البحر منها بعض الحكايات عن قوارب صيدٍ ابتلعها النسيان.

كم يكون جميلاً أن تخلو إلى نفسك قليلاً.. تركز في احتياجاتها ورغباتها المنسيـّة. تتأمل لحظاتها التائهة في زحمة الحياة وتتفكر في ابتساماتها الهاربة بسبب ضغوط العمل والأبناء. تُشرح مشاعرها المدفونة في قبر العيب وغير المتاح، وتهدئ هواجسها وتخوفاتها المتدثرة بشال الخجل.

في طريق العودة، تحدثتْ قدمي مع شوكةٍ بائسة. كان الجُرح سطحيـًا، لكنه ظل مؤلمـًا.

أرى البيتَ خفيفـًا يسبح كالغبار، وكلما اقتربتُ منه أشعرُ بأنه يشبه تلك البيوت الغامضة في أفلام والت ديزني.

في المنزل مجددًا، والوقتُ يمر. أحاول أن أبدد الملل بالقراءة. بعد نحو ساعةٍ، أغلقُ الكتابَ الذي بين يديّ، كي يرتاح قليلاً من المناجاة التي دارتْ بيننا.

أشعر بآلام في الرقبة والظهر. أزفرُ زفرة عميقة في هذه الليلة التي تتباعد المسافة بين دقائقها

يهدأ الكون ليلاً، حتى يصير الليل كونـًا.

أنتبه فجأة إلى أن اليوم، ٢١ مارس، يوافق عيد الأم في معظم الأقطار العربية.

هنا، عيد الأم، له تاريخ مختلف. يحتفلون به في ثاني يوم أحد من شهر مايو

سمير، ابنٌ بارٌ بوالديه. كلما زار والدته انحنى ليقبل اليد المعروقة، يطلب البركة والدعاء، تربتُ أمه على كتفه، وتمسح على رأسه؛ تبسمل، وتحوقل، وتقرأ ما تيسر من الأوراد. يخفض الرأس، ويغمض العينين، وهو تتلو سورة الإخلاص والمعوذتين.

قد أجاملُ لأسباب اجتماعية، لكنَّني لا أترخصُ في المجاملةِ. أما سمير فإن طبيعته حذرة ومتحفظة،

في إحدى حالات البوح النادرة، قال لي: طالما أنت أمامي في الجهة المقابلة من الطاولة، لن أشعر بمرارة الحياة.

يقولون إن "الذي يأكل من طبق صعب أن يكسره" هذا صحيح، وربما يدافع عن سرطان الثروخ المنتشرة فيه، بدعوى أنها عملٌ إبداعي.

يحدث هذا في كثير من البيوت أيضـًا تحت لافتة: وهم الاستقرار.. أو سراب الاستمرار

يحدث هذا رغم الجروح العميقة؛ ليست خدوشـًا.. بل هي جروحٌ غائرة.

في تلك الأيام التي تركض، ونركض وراءها، واهمين اللحاق بها، كيف لنا أن ننتبه إلى ما فقدناه على الطريق!

أعرف أن من تقاليد عائلته زواج الأقارب، رغم ما يسببه ذلك من مآسٍ وأطفال ذوي احتياجات خاصة. سألته عن سبب تمرده على العائلة. حكى لي عن حوار دار مع والده يومـًا؛ إذ قال له:

– يجب أن تتزوج ابنة عمك!

– لا أريد زوجةً تشبه عمي تُقاسمني الفراش.

مالي ومال ابنة عم زوجي!

كم أوَدُّ أن أكتب رسائل بحبر القلب، لأُمّي وقد خذلتني عناوين جسدها.. يداي مغلولتان يا أُمّي، ولهفتي لا تصل.. الآن أدرك سرّ دمعك!

لصديقتي السورية (أم ماهر) وهي تجتهد في ولادة أمومتها.. كلما قطفوا منها ولداً وبنتـًا وأحبة.

لصديقتي رضوى، التي تنشد الصفح عن عسكر اختطفوا ابنتها في الليل، ولا تزال حانقة على أمومتها التي غفلت عن شال يُدفئ صدر صغيرتها الطالبة الجامعية.

للحلوة أنجيلا، التي عرفت روحها الأمومة قبل جسدها، وهي تكابر فقدًا إثر فَقد، فتشتري وردًا وتصلي لأمٍّ عسى أن يكون وقتها أقل شوكـًا.

لصديقتي صباح، التي لم تُنجبْ أولادًا، لكنها تعرف كيف ترّبي الأمل في انتظار الزوج.

لأولاد صديقتي سمر وزوجها، الذين يكابدون عناء استيلاد أمومتهم بتوقيت الموت الذي خطف أمهم دون إنذار.

أنثر لهفتي علّها تصل.. وإذ تخفق يداي؛ أدرك سرّ الدمع.. وأبتسم؛ ما أغزر دروس الأمومة!

(٨)

كلُّ أرضٍ تُنجبُ وعودَها الكامنة.

المدينةُ تغسلُ جسدها العاري بأمطار لا تتوقف، والشوارع يخترقها عابرون دفنوا أسرارهم في بطن الغموض.

رائحة المطر أخاذة. أشمها فيسري دفءٌ رحيم في جسمي. رائحتان أبديتان من عطر الوجود. رائحة التراب حين يبلله المطر، ورائحة الأطفال الرضع.

في بعض الصباحات الخريفية التي تفتح قميصها للغيوم، أسرقُ بعضـاً من دفء الشمس الخجولة التي لا تكادُ تطل بأشعتها الحانية حتى تتوارى. أجري خلف قوس قزح، وأحاول الإمساك بنسمة قادمة من ملح البحر. أمسك بالقواقع وأقربها إلى أذني لعلها توشوش لي ببعض أسرار الحياة.

أراقب الشمس وهي تصعد بين الحين والآخر، مختالةً بالشعاعِ، وأتأمل غصون الأشجار التي تتبع تعليماتِ الخريف بحذافيرها.

كأن مذاقَ بقايا الفصل المتأرجح لا يكفي.

تدعوني رولا لتناول الغداء في بيتها، وتُغريني بأصناف لا أجيد عادة طهيها.

تقول لي: سنأكل معجناتٍ شهية وشرائح من صدور الدجاج المتبلة بصلصاتٍ من ابتكاري. العالم يصبح مكانًا أفضل في ظل وجود تلك الصلصات العبقرية: صلصة الطماطم بالريحان التي تنام فوق شرائح الدجاج المحمرة جيدًا في الفرن حتى تصل إلى اللون البني الرائق، والصلصة البيضاء

بالكريمة وعيش الغراب والجبن السائح، وصلصة زيت الزيتون بالليمون وخل التفاح، وصلصة التونة بالفلفل الملون وصوص الصويا، وصلصلة البشاميل بعيش الغراب والذرة الصفراء وجبن الموزاريلا، وهكذا.

- كفى، كفى. أنا قادمة. جهزي لي وليمة مناسبة بكل هذه الإغراءات الدسمة.

أحِبُّ صحبتها وربما صراحتها.

ابْتسَمَتْ وهي تُوزِّعُ الأطباقَ فارغةً على مائدة الطعام. وسط قلقة الأواني وصَوتِ الملاعقِ والأطباق، حدثتني عن آخر أخبار حياتها العامة والخاصة.

كان الجو منعشـًا، فقررنا الانتقال إلى الشرفة طلبـًا لنسائم الهواء التي تلاطف وجوهنا.

تتعاقب السجائر على شفتيّ، وأطير بمسافةٍ موصوفة خارج ذاتي.

يسكنني الصمت وأنا أمسكُ بين يديّ كوبـًا من شاي أعشاب من القرنفل والتفاح والبرتقال، تُسميه رولا "بهجة الشتاء"

نجحتْ القهوة، في إحدى مراحل علاقتي الحميمة بالتدخين، في أن تربط نفسها بالسيجارة لتصل عبرها إلى الدم في عروقي ومنها إلى قلبي. مع ذلك بقي الشاي، رغم المقاومة الشرسة أحيانـًا من جانب القهوة، ندًا أنيقـًا ومحترمـًا.

تقطعُ رولا شرودي متسائلة:

- ما بكِ؟

- لا شيء.

- طالما قلبكِ حزينٌ وبه لوعة، فإن ملاعق السكر في الكوب لن تصنع شيئـًا.

- حسنٌ. كنتُ فقط أفكر في الإجابة عن سؤال يحيرني؛ متى نعرف أننا كبرنا؟

كان مرفقاها منثنيين وكفاها مضمومتين، وهي تستفيض في الرد: حين تبدئين في استخدام كريماتِ العناية بالبشرة المضادّة للتجاعيد، حين تراقبين معايير السكر والملح في طعامِك، حين تركُنين للهدوء، حين تُعاندك ساعتك البيولوجية صباحـًا فلا تكمِلين نومك وتغادرين الفراش إلى سوق نهاية الأسبوع بقائمة طعامٍ مملة لا تتغير، حين تقلّبين قنواتِ التليفزيون بلا هدف، حين يزيد وزنكِ عدة كيلوغرامات إضافية ولا تهتمّين، حين تستهلكين ساعات المساء في العناية بأزهاركِ ونباتاتكِ فيما أنتِ تعيدين سقيها لا أكثر، حين تحيّين أصحاب الحي وتتبادلين الكلمات والتحيات القصيرة، حين تنتشِر رائحة الزيوت الدوائية في بيتك.. وتربّين قطة!

أضحكُ قائلة: بقيتْ القطة، وتكتمل الدائرة!

أحِنُ إلى أخبار الوطن البعيد. أينما ذهبت، ستحمل مصر معك، وإذا حاولت التخفف من حضورها، فإن طيفها وصوتها لن يُغيبهما البعاد أو طول السفر

فقدتْ الصباحات براءتها في مصر منذ تحولت إلى موعد لإطلاق صافرات الحزن اليومي.

ذلك حظ الذين يبدؤون مثلي نهارهم بطقوس من بينها متابعة أخبار ما جرى ويجري.

أدير مؤشر محطات الراديو، وأعبث بجهاز الريموت كونترول كي أصل إلى قنوات محلية دفعتُ من أجلها اشتراكـًا إضافيـًا.

عبر الأثير، تُحدثنا المذيعة، وهي تدغم الحروف ولا تقف عليها إلا سريعـًا مفخمّة في الراء وبخَنفٍ خفيف موروثٍ غالبـًا من دراسة في جامعةٍ أجنبية، تُسعِد مستمعيها من الطبقة الوسطى التي تحاول العودة للبيت في مرور القاهرة، وتثرثر قائلة إن الحل الوحيد هو إيقاف هؤلاء الذين يدّعون أنهم من الشعب "وهم أصلاً ضد مصلحة الشعب"، قبل أن تتركنا لأغنية علي الحجار "همّا شعب وإحنا شعب"

على التلفاز ومحطات الإذاعة، يتدفق سيلٌ من الأغاني "الوطنية" لا تُصلح الأغاني الوطنية ما أفسد الدهر.

من قناةٍ إلى أخرى، تسحقني لغةٌ لا تصلح للمستقبل. قلبي ينبئني بأنّ ضررًا بالغـًا وقع، وأننا جميعـًا ذاهبون إلى هاويةٍ سحيقة.

كل شيء مكرر؛ قارئ النشرة الذي يتشدق بمقدمة باهتةٍ لخبرٍ أصابه العفن، ومقدم البرامج الذي يلعق حذاء أجهزة الأمن، والمذيعة الدميمة التي تكاد توبخ المشاهدين لأنهم لا يعرفون قدْر "القائد" الذي يحكمهم.

حين يكون التليفزيون بديل القراءة في تحصيل المعرفة، فقُل على الدنيا السلام.

تتحول دفة الحديث في الفضائيات ما بين يوم وليلة إلى تكريم الأم المثالية فيفي عبده، وعقد احتكار الراقصة الأرمنية صافيناز، ومقال باسم يوسف المسروق، وتسريبات محمد البرادعي، وكفتة إبراهيم عبدالعاطي التي تعالج فيروس "سي" والإيدز، وحكايات توفيق عكاشة القريبة من الخيال العلمي، وحماقات برامج التوك شو، وتصريحات مصطفى بكري رجل كل العصور، ونضال الخبراء الاستراتيجيين ونبوءات خبراء الأمن وجهاد الخروج على الحاكم، وأكاذيب وزارة الداخلية، وصراع تمثيل الفضائيات بجثة الوطن.

نعيش أزمة الاتهامات الفضفاضة، والتقارير الأمنية، ومكائد البشر، والهرج والمرج، وحالة التوجس التي وصلنا إليها.

كالعادة، يُريحُ البعضُ نفسَه بإلقاء تبعةِ ما يجري على عاتق "المؤامرة" وما أعداؤنا إلا نحن!

الموتُ بفعل الفساد والإهمال والجهل لم يعد عالقـًا بقريتي، بل أصبح عابرًا للمدن وتفشى كالطاعون. كل مدننا صارت راقدة تحت ركام التراب والدخان والغبار، واليأس.

يبدو لي أن قوى الثورة، تسير في الاتجاه الصحيح.. بالطريقة الخطأ؛ أما قوى الثورة المضادة، فهي تسير في الاتجاه الخاطئ.. بالطريقة الصحيحة.

هذا هو الفرق!

غدًا سيمتلك الشيخ والتاجر مؤخرة المواطن مناصفة، وسيصفق السذج فرحـًا بنعمة الأمن والأمان.

ليس ثمة ملك يأخذ كل سفينة غصبـًا. هذه السفن تذهب طوعـًا إلى حتفها.

"الناس يعبدون القوة، حتى ضحاياها"، كما يقول نجيب محفوظ في "أولاد حارتنا"

لا يمكن أن تحيط كلماتنا بحصر الكارثة التي صنعها قادتنا التاريخيون و"المواطنون الشرفاء"!

في المنافي يكون تأثير الحزن مضاعفـًا؛ أما الشر هناك فمذاقه مختلف.

بعيدًا عن مصر.. أتذكر أشياء كثيرة، من بينها تلك الصور الخاطفة التي نلتقطها فوق الكباري لشرفاتٍ تطل على الآخرين.

شرفات تطل على عالمهم وأرواحهم. في المنزل وداخل تلك الغرف التي تضيئها قناديل الاطمئنان.. نكتشف الدهشة في أبهى صورها.

للآخرين عالمهم.. لكننا نزورهم بغير استئذان؛ لأننا ببساطة نسافر على الطُّرُقات أو القضبان.

نحن العابرين، نراهم ونتساءل قبل أن يتحول الطريق إلى جنيّ يخطفنا ويخطفهم.. إلى صورة أخرى ومنزل آخر.

من تلك النظرات السريعة المختلسة يتشكل الكون.

المنازل المستعارة والشقق الراقية تبقى منافي.

أقول لنفسي أحيانـًا: للميني من بلاد الله يا بلادي. شدي الأرض من أطرافها وصالحينا، نحن الصالحين المعاقبين بمحبتك؛ فالغريب لا يسكن ولا يعز في الأرض التي يضيق أهلها به.

حين أتعبُ مِن شقاء الأيام، وتسبقني روحي إلى المُنعطفَاتِ الخادِعة، تنساب من شقوق الذاكرة حكاياتٌ تستتر خلف شَفَقٍ مِن غبار.

أداري الذكريات، فأتذكر أُمِّي. دعاؤها مَزامِير استِغفَار وصوتها حفيفُ الحنان.

في سنوات المنفى، كانت تبكي وهي تحتضنني كلما زرتها، كأنها تُعمدني بالدموع حتى يبقى الوطن حاضرًا في قلبي.

تقول لي على الهاتف: كبرتُ كثيرًا، والأمراض أقوى من جسدي الضعيف. أريد أن أراكِ قبل أن أموت. العُمر غير مضمون يا حبيبتي.

أعدها بزيارة قريبة، لكنها لا تأتي إلا بعد اتصالٍ هاتفي من أحد أقاربي يعزيني فيه برحيلها المفاجئ.

في جنازتها، ودَّدتُ لو أني أدرتُ ظهري للكون كأُمنيَةٍ خائفة، ونمتُ في حضنها، وأنا أقرأ لها بعض ما قرأتُه أو كتبتُه، تمامـاً كما كنتُ أفعل في سنواتِ الصبا.

يَخِيطُ اليقينُ كَفَنَ الأيام، وأنا أغلقُ على نفسي بابَ المعاركِ القديمة. أكسرُ مرآةَ الوقتِ، وأقول لنفسي: لو أن الوميضَ تباطأَ قليلاً، لكنتُ أدركتُ أحلامي الضائعة.

في غياب أُمِّي، نسيتُ أن اصنعَ أجنحتي وأفردها.

سأتلو الآن دعاءً لها بالمغفرة، ربما يكون أمامي متسعٌ من الوقت كي أندم لتأخر زيارتي الأخيرة.

الندم لسعة لا تُنسى، يُذكّرك بها الأثر قسرًا.

(٩)

عشتُ يومـًا طويلاً وشاقـًا، ككل أيام المناوبة.

مستنزفة. صوتي المرهق ينبئ بذلك، كما هي الحال في صوت بطاريات الأجهزة التي تقترب من نقطة نفاد الشحن.

راودني شعورٌ مماثل لذلك اليوم الذي تعطل فيه هاتفي المحمول. انطفأت شاشته المضيئة. وضعتُه في حقيبة يدي، لكي أصلحه في وقت لاحق. فجأة شعرتُ أنه أثقل من المعتاد. الأشياء التي تفقد الروح وتتحول إلى جثة، تصبح ثقيلة الوطأة.

وقتي موزعٌ في تلك الأسابيع بين عيادتي؛ ثم المرور على المرضى في المستشفى. غالبيتهم حالتهم المرضية متقدمة للغاية وأضطر إلى خوض مناقشات فلسفية مع المرضى والأهل تتركني منهكة نفسيـًا. الناس يختلفون في اللحظات الأخيرة في تشبثهم بالحياة وعلاقتهم بمن حولهم. أحاول أن أتركَ بصيص ضوء في نفوسهم، وألا تكون الكآبة صبغة الحوار. طلبة الطب الصغار في العشرينيات يتعلمون ويحاولون بذل قصارى جهدهم كي يكتسبوا خبرة وتمرسـًا في هذا العمل الشاق. أشعر دائمـًا بالشفقة عليهم، وسط تساؤل عما إذا كنتُ أريد لأولادي هذا النوع من الدراسة أو العمل.

أطباء وممرضون وعمال يجرون في طُرُقاتِ المستشفى الكبيرة. كل لحظةٍ قد تنقذ حياة مريض على حافة الموت.

كنتُ صائمة، وطبعـًا حل موعد أذان المغرب أثناء مروري على المرضى. أحد المتدربين صائمٌ مثلي. بعد المرور سأذهب إلى الطوارئ لأجري أشعة على القدم. يبدو أن كاحلي الأيسر تضرر من ساعات الوقوف الطويلة في غرف العمليات. ألمٌ شديد منذ عدت من السفر. بالكاد أكمل المرور على المرضى في فترة المناوبة. لم أتنزه في الغابة القريبة من منزلي منذ شهر تقريبـًا. أفتقد الغزلان والأفق قرب مغيب الشمس. لديّ خوفٌ من المشي بمفردي.

البارحة كنتُ أفكر في أني لم أعدْ أشعر بالأمان كما كنتُ قبل حادثة السطو التي تعرض لها منزلي في إجازة نهاية الاسبوع، وراحتْ معه بعض الحُليّ والمجوهرات التي كنتُ أحتفظ بها منذ زواجي. كنا جميعـًا خارج المدينة، عندما سطا لّصٌ – أو لعلهم لصوص– على المنزل، واستولوا على كل ما خف وزنه وغلا ثمنه.

أبكي بحرقةٍ على المسروقات العزيزة على نفسي، وأتصل بشركةٍ لتأمين المنازل تركيب أجهزة إنذار ضد السرقة وكاميرات مراقبة للمداخل.

في الأيام التالية، كنتُ كلما خرجتُ من المنزل، تسرقني الخطوات السريعة، وتعبئني في جيب المسافة. خائفة من مجهول ما، صنعته الحادثة.

أخشى في كل لحظة أن تنفتح الأرض لتبتلعني، وفي خلفية المشهد موسيقى ثقيلة على الأذن، كما لو أنها تتواطأ لإخفاء معالم الجريمة. أسير، وحين أنظر إلى الوراء أكتشفُ أنه لا أثرَ للخُطْوة. أشعرُ أنني لن أجدَ طَرِيقـًا يؤدّي إلى البيت.

أتمنى أن يُداوي الوقتُ ذلك الشعور.

باقي الأسبوع مزدحم كالعادة بكل الالتزامات.. نعمة نحمد الله عليها وعلى باقي نعمائه.

في غرفة الكشف الطبي، يقف أمامي رجل سبعيني يرتدي بدلة كاملة. من جيل يحترم زيارة الطبيب. يصحب زوجته لمدة خمسين عامـًا وهو في حالة نفسية سيئة. فجأة، اكتشفتْ وجود ورم في الثدي، أظهرت الفحوص الطبية والأشعة أنه انتشر وامتد إلى الرئة.

أفحص المريضة بالعناية اللازمة. التحدي بالنسبة لي كطبيبة هو الحفاظ على المصداقية وواقعية توقعات العلاج، مع ترك بارقة أمل. تصحبهما إحدى بناتهما الخمس للعيادة.

تخبرني أنها عاشت حياة جيدة ولم تؤذ أحدًا، وأنها ربت بناتها وكلهن جامعيات. جميلة حتى وهي في سن السبعين. أصولها إفريقية. تدعو بثقة وإيمان. في زاوية الغرفة، انخرط زوجها في البكاء. أمازحه للتخلص من المزاج المتكدر في المكان، متسائلة: ترى، هل هي تتقن الطبخ؟ فيرد بالإيجاب. أسأله أن يخبرني عما لا يحبّه فيها. في أقل من ثانية يرد: لا يوجد شيء!

أربتُ على كتفه وأشرح العلاج لنوع من سرطان الثدي أكثر شيوعـًا في صفوف النساء اللاتي ينحدرن من أصول إفريقية.. وأشاركه الدعاء.

أحرص على الخروج من دوامة العمل بالمشاركة في النشاط الاجتماعي والثقافي، سواء في مدارس المدينة وجامعتها الرئيسية.

جاءتني دعوة من مدرسة للمرحلة الابتدائية في المدينة لحضور فصل للرسم مع الأطفال في المدرسة. أعجبتني الفكرة حتى وصلت إلى الفصل ووجدتُ أمامي أطفالاً غاية في الشقاوة، يتقافزون وينظرون لي من فوق لتحت ويسألونني ما إذا كنتُ تلك القادمة من مصر. رددتُ بالإيجاب ففوجئتُ

بأحدهم يزعق "كائن فضائي... كائن فضائي" سألتُه عن سبب اعتقاده هذا، فقال لي إنه قرأ إن بناة الأهرامات كائنات فضائية. أدركتُ أني في وضعتُ في مأزق، فخطر على بالي أن أعرض على الأطفال مجموعة صور وبطاقات تذكارية من مصر كنتُ أحتفظ بها، وأفهمتهم أن المصريين ليسوا كائنات فضائية.

لم يهدأوا على أي حال، فاقترحتُ عليهم الاشتراك في لعبة، فأكملوا تقافزهم ولغوهم، لكن أحدهم سألني "أية لعبة؟" أجبتُ: "هل تعرفون كيف تكتبون أسماءكم باللغة العربية؟" ظهرت عليهم علامات الذهول، استأنفتُ قائلة "إن التزمتم الهدوء سأكتب لكم أسماءكم باللغة العربية"، فما كان منهم إلا أن عادوا إلى ملائكيتهم الوديعة.

طلبتُ من المدرسة ورقـًا وأقلام فلوماستر، وأخذتُ أشرح لهم كيف أن اللغة العربية تختلف عن الإنجليزية، وأنها تكتب من جهة اليمين لا اليسار، قبل أن أشرع في كتابة اسم كل واحد منهم باللغة العربية على ورقة منفصلة. تقاطروا عليَّ وأخذوا ينظرون لحركة يدي وأنا أكتب لهم الأسماء بلغةٍ جديدة، ثم يأخذ كل منهم الورقة التي تحمل اسمه مزهوًا بهذه الهدية المفاجئة. غمرتهم سعادة لا توصف، وأخذوا يتأملون أسماءهم ويقارنون بين أشكالها وتعرجاتها. وحينت انتهت الحصة، هرعوا جميعـًا للخروج، إلا واحدًا، اقترب مني حتى وصل إلى أذني ثم همس لي في صوتٍ خفيض: "أنا عربي... ينادونني مو، لكن اسمي مصطفى" سألته عن سبب عدم مجيئه لكي أكتب له اسمه مثل الآخرين، فأجابني: لا أريدهم أن يعرفوا اسمي الحقيقي.

ابتسمتُ وقلتُ له "أتعرف شيئـًا؟ أنت تمتلك ميزة أفضل من كثيرين حولك. معظم هؤلاء لا يعرفون سوى لغةٍ واحدة.. أما أنت فيمكنك فهم لغتين" ابتسم بود، خاصة حين أردفتُ قائلاً "يجب أن تفخر بذلك".

حفر هذا الموقف عميقـًا في نفسي. لم تكن تلك هي التجربة الثرية الوحيدة التي مرت بي في أثناء اهتمامي بالمشاركة في النشاط الثقافي والاجتماعي في المدارس والجامعات.

دُعِيتُ من قبل لحضور عرض مسرحي في الجامعة، بدا لي كأنه عرضٌ للمحترفين وليس لهواة. أداء متقن وديكورات جميلة، وموسيقى مصاحبة تضيف إلى جودة العمل.

بعد انتهاء العرض، حرصتُ على الذهاب إلى الكواليس لتهنئة فريق العمل المسرحي.

مددتُ يدي بامتنان لأصافح مخرج العرض المسرحي المدهش وليام والطالب الذي يساعده في مهمته: كريس. لم أر يد كريس، التي أخرجها من جيبه ليصافحني، لكني شعرتُ بها في يدي: صغيرة الحجم، ملساء وفيها طيبة الإمساك بيد طفل. من الصعب وصف الإحساس بالكلمات: إنها المفاجأة ما بين المتوقع من مصافحة شاب في العشرين من عمره وما بين اليد الصغيرة التي صافحتني. ما هي إلا ثوان حتى أدركتُ أن يديّ كريس ليستا سواء. اليسرى كاملة النمو، واليمنى التي صافحني بها صغيرة الحجم. حُبُّ ما تولد بداخلي كما لم أشعر به من قبل؛ أحببتُ مصافحة يده الطيبة. صافحته بتلقائية وقبل أن أراها، غير أن المفاجأة جعلتني أتسمر أمام إرادته. طالب علوم كمبيوتر، يعمل مساعد مخرج في مسرح الجامعة، جاء ليسلم عليّ فصافحته دون إدراك، وها هو يغير حياتي ونظرتي "للإعاقة"

كريس ليس معاقـًا. يده علامة كاملة على الحياة. تلك اليد الطيبة لمست قلبي وهي تصافح يدي.

(١٠)

هناك الكثير من جوانب حياتي الخاصة مما يمكن ترجمته إلى غياب الشعور بالأمان؛ مرعوبةٌ من أن أستيقظ يومـًا دون مالٍ يكفي لتسديد فواتيري. أقلقُ وأتوتّرُ في الحفلات، لا أحِبُّ أن أقف وسط حشدٍ كبير.

هل جئتُ بهذا الإرث الثقيل معي؟ أين كان مختبئـًا؟ في حقائبي أم في صدري؟

كل ما أعلمه هو أن هذا الشعور لازمني كثيرًا وطويلاً.

في الاجتماع الأسبوعي الأول لي ضمن أسرة تحرير المجلة، أجاري مُجهدةً النقاش الدائر حول موضوعات العدد الجديد. يجلس رئيس التحرير، يحيى، على رأس الطاولة البيضاوية، فيتحدث عن العدد الأخير في السوق ومعدلات التوزيع وردود فعل القراء وما إلى ذلك من أمور، قبل أن يفتح باب النقاش بشأن الأفكار والمقترحات الخاصة بالعدد الجديد.

أخذتُ أراقب عينيه العميقتين الداكنتين المستديرتين، وعنقه القصير الصلب وجسده الثقيل العريض، وشعر رأسه الخفيف المصفوف بطريقة عادل إمام، في محاولة لمداراة الصلع، وهو يُعلق بسرعة وحسم على بعض الأفكار مؤيدًا أو مستبعدًا لها. تتحرك عضلات وجهه، كلما تحدث مُلوِّحـًا بيده أو

وهو يحاول إعادة صياغة الأفكار لتصبح قابلة للنشر. لوهلةٍ، بدا لي بملامحه تلك مضحكـًا كحرف جر في عنوان مسجوع لكتاب قديم.

يحين دوري. ينظر باتجاهي ويرحب بي بكلمة مختصرة، ثم يصمت في انتظار سماع مقترحاتي.

أرتجل، رغم أني أعافُ الارتجال. أحاول أن أثبت ذاتي، أنا التي تأهلتُ في بؤسٍ لنبلِ الحياة.

أتعثر في خطواتي الأولى، بسبب افتقاري للخبرة، لكنني أحاول التأقلم وتطوير أدواتي.

تعلمتُ ألا أدفع رئيس التحرير، يحيى، إلى أن يكزَّ على أسنانه كما هي عادته كلما استشاط به الغضب أو استمع إلى اقتراح محبط بموضوع صحفي يراه قليل الأهمية أو الجاذبية. صار يرفع أصابع يده اليمنى إلى شاربه الأسود؛ ليعبث به وهو يتفكر في مقترحاتي للكتابة في المجلة.

أتمردُ تدريجيـًا على السمات الريفية لأسلوب حياتي. أسعى لتعلم الكثير في وقتٍ قياسي. أمتلك قوة ملاحظة وإرادة قوية ورغبة كبيرة في التعلم والتعود على حياتي الجديدة.

كنتُ أريد أملاً أطفئ عليه نور النهار، وأتطلع إلى نصر مستحق؛ لأفتح بعده صندوق آلامي.

في المجلة، تعرفتُ إلى كثيرين.

يعيش بعضهم اشتباكـًا مُنهكـًا مع مفردات واقع مليء بالتربص والأذى كالذي نعيشه. يكتب باندفاعٍ يجعل كل الضباع تتكالب على لحمه وهو حي. البعض الآخر يعيش على فتات الولائم والهدايا والمنح التي تدنه وتروض كلماته كي تخدم أهل النفوذ وأصحاب المصالح.

من الصنف الأخير زميلي أسامة. كائنٌ مُرُّ النَفْسِ، حامِض الرِّئتين. يمتلك جبهة بدأ الشعر ينحسر عنها. وشاربـًا يليق برجل أمن. دائمًا في الحياة كما الحكاية، هنالك شخص واحد يفسد كل شيء. ربما كان أسامة هو ذلك المفسدُ التلقائي للحكاية والمكان. نموذجٌ بغيضٌ للصحفي الحائر بين ألف مصلحة ومصلحة. يُسفْلِتُ كلماته؛ لتمشي عليها الرداءة والانحطاط. قلمه المأجور يُنذر ضحاياه بالشر كمسدس. يبدو مثل شخصٍ قادر على القتل والابتسام وإبداء الأسف في آنٍ.

ليس شرطـًا أن تكون العاهرة امرأة؛ قد يكون زميل عمل هوايته الإزعاج، أو جارًا يكسر شيئـًا بإزميله في الجهة المقابلة لحائطك.

حاول أن يكون لطيفـًا معي ذات مساء أمام مصاعد المبنى، أخذ يبتسم لي برأسه الصغير الذي لا يتناسب أبدًا مع ضخامة جسمه، حتى أنه يجعلك تتساءل: أين جمجمته ومخه؟

التزمتُ الصمت. نظراته التي تُعرِّيني فاضحةٌ مثل ندبة على وجه قاتلٍ مأجور. استفسر مني عن سبب عدم تجاوبي مع حديثه. لكمتُه بنظرة ازدراء، قائلة: عندما أتجاهلك بذوق فهذا يعني أن حديثك معي أخذ وقته بالكامل. طابت ليلتك.

عندما سألتني زميلتي برناديت عن سبب جفائي معه، أجبتُها قائلة: ليس لي عدوٌّ سوى البلادةِ والفساد. كما أنني لا أطيق البهائم التي منحتها الأقدار سهوًا نعمة العيش على هيئة بشر.

تعمدتُ تجاهله بعد تلك الواقعة رغم محاولته تلطيف الأجواء بيننا. بعض الحديث مهما أشعلتَ بعده مباخر الاعتذار، رائحته العطنة تبقى عالقة في الأجواء.

عرفتُ أيضـــاً أكرم، رئيس القسم السياسي.

لبناني في مطلع عقده الرابع. يوحي مظهره بالعنفوان، يتمتع بوجه متسق، واضح الملامح. عيناه العسليتان غرفة قيادة الكون، أما ابتسامته الجانبية فهي الدهاء على شكل شفتين.

البداية بيننا لم تكن مشجعة. ذات يوم، لم يكن فيه مزاجي رائقـــاً، أبدى ملاحظة ناقدة لما كتبته في موضوعي المنشور في المجلة عن دور الثقافة الشعبية في ترسيخ فكرة التفوق الذكوري.

جاء في الموضوع الصحفي أن "الثقافة الشعبية هي بيت الخطيئة؛ إذ تروج لأفكار ومفاهيم مستوحاة من روح القبيلة أو العشيرة، وتخلع عليها صفة الحقيقة حد التقديس. هكذا تصبح الفكرة "المقدسة" أولاً: مختلطة في الأذهان المشوشة بالدين – والدين منها براء– وثانيـــاً: غير قابلة للنقاش، باعتبارها حقيقة!"

قال لي:

- إن كنتِ تريدين رأيي، هناك رائحة ناشطة نسائية في موضوعك. لو أنكِ تركتِ مسافة بين آرائكِ الشخصية والموضوع لكان وقعه أفضل وتأثيره أكبر. فكرة التفوق الذكوري نفسها خدعة. الأخطر هو ذلك السباق الوهمي بين المرأة والرجل للفوز بجائزة التفوق. ببساطة، ما لهذا خُلقنا!

مرجل الغضب والعصب العاري، جاهزٌ بشحنة انفعال مدوية أمام أي بادرة نقدٍ من غرباء.

أنا لا أطلب من كاتب أن يشرح كلماته وأتجادل معه لأجل صياغةٍ أفضل في نظري. أن تكون القارئ يعني أن تقرأ فقط دون أن تتدخل. دون أن

تتطفل. بعضهم يشوه مشهدك الخاص الذي تكتبه بخيالهم الرديء. هؤلاء لا أطيقهم. يمسون الكلمة بالمخالب.

رددتُ عليه بحدة، ويداي تلوحان في الهواء بتوتر بالغ:

- هذا هو رأيي. على الأقل، هذا أفضل من باقي المقالات شبه المستنسخة التي يكتبها أوغادٌ لا حبر في أقلامهم، وباعة وهمٍ محترفون. هل تعرف أهمية الإتقان بالنسبة لي؟ هل تدرك معنى الغضب من أجل الهمزات التي يجهلها أحمق ما، فوضعها حيث ينبغي ألا تكون، وأهملها حيث يجب أن توجد؟ على أي حال، وحتى ترتاح أكثر، ليكن بيننا اتفاق؛ أنا أكتب ما أريد وأنت تقرأ لمن تريد.

اللسان هُوَ ندمي المتكرر.

صمتَ وهو يحدق في عينيّ مستفهمـــاً عن أسباب هذا الرد الذي لا يخلو من جفاء.

أبغضُ كل من يمارسُ عليّ الإيحاء كي أتصرف وفق ما يريد.

بعد يومين، التقينا في كافتيريا المجلة. ألقى تحية الصباح بابتسامةٍ ودودة، فشعرتُ بالخجل من نفسي. اعتذرتُ له عن المرة الماضية، فابتسم وقال لي: لا يهم، لقد نسيتُ الأمر بالفعل.

أردف قائلاً: الحياة جميلة كلما تعاملنا معها ببساطة. لقد أراح المصري ضميره منذ ألف سنة وأوصانا بقوله: "ما تبقاش حنبلي"!

ضحكتُ على طريقته في الحديث باللهجة المصرية.

قلتُ له: من الآن فصاعدًا، لا تكلمني بلهجة بيضاء، أحِبُّ لكنتكَ الجنوبية.

تشجع أكثر، فطلب مني استعارة الكتاب الذي كان بحوزتي للكاتب الساخر جلال عامر، لحُام السفن في ميناء المرح، الذي رحل في هدوء، بعد أن أوصى ابنه رامي برتق بعض شقوق الملل في باخرة الكتابة.

وعدتُه بأن أعيره الكتاب فور انتهائي من قراءته.

جمعتْ بيننا أشياء كثيرة، ربما كان أهمها نظرتنا المتحررة للحياة.

أخذت تنساب بيننا الكلمات طلقة بالفطرة، متوجة بشفافيةٍ منعَمة.

علمتُ منه أنه متزوجٌ من أيرلندية، لكنهما لم يرزقا بأطفال.

أعجبتني كتاباته ورؤيته لوطنه بشكلٍ يتجاوز الخلافات المذهبية والطائفية التي لطالما مزقته وجرته إلى أتون حرب طائفية مدمرة.

توقفت عند مقالة بديعة له كتبها في ذكرى اندلا ع الحرب الأهلية في لبنان، جاء فيها:

"يصعب ألا يتوقف لبنانيٍ عند تاريخ الذكرى الكاوية، لكننا نحن، لبناني المهجر– المنفى، نتوقف عند الثالث عشر من نيسان (إبريل) بمرارة أكبر؛ لأنه قذف بنا بعيدًا، في المسافة وفي الزمن.

منذ عين الرمانة تتناسل حروبنا، نفرح بها ونعطيها أسماء، نحتفل بأعياد ميلادها وموتنا بحنين يكاد يكون مرضيـًا وإن غلفناه بعبارة "تنذكر ما تنعاد" حروب يُنجبُها اعتقادُنا الباطل بأننا أسياد اللعبة، فيما لعبة الأسياد (إقليميين ودوليين) لم تتوقف منذ واقعة "البوسطة" المشؤومة.

في هذا اليوم أتذكر ضحايا الحرب من الناس "العاديين" (بالمقارنة مع أمراء الحرب بوصفهم غير عاديين في نظر مناصريهم).

أتذكر هؤلاء وغيرهم من ضحايا الحروب التالية: الجبل وشرق صيدا و"انتفاضات" بيروت الشرقية داخل التنظيم الواحد، وحرب إقليم التفاح بين من كانوا ذات يوم في تنظيم واحد، وحربَيّ التحرير والإلغاء، دون أن ننسى ضحايا مجازر السبت الأسود والدامور والعيشية والصفرا وإهدن.

وأخيرًا، يجب ألا ننسى آلاف المفقودين والمخطوفين والمعوقين وجرحى الحرب.

إذا تذكرنا كل هؤلاء واستخلصنا العبر، عندها فقط لن تتكرر حادثة عين الرمانة في مكان آخر وبين أطراف أخرى، وإذا لم نفعل سيكون انتماؤنا لهذا الوطن مجرد... حادثة"

أبديتُ له إعجابي بما كتبه وتأثري بهذه الأجواء الإنسانية التي رصدها بعناية وأناقة رغم مأساويتها، فكانت ابتسامته بوابة لصداقة نسجت خيوطها بيننا.

من باب الصداقة، ندلفُ إلى أبواب أخرى تعامينا عن توقعها طوال الوقت، رغم أنها كانت أمامنا دائمـًا. كنتُ أستسيغ مجاملاته الرقيقة، عن ذوقي الرفيع في اختيار ملابسي، ونضرة وجهي، وعطري ذي الرائحة النفاذة. حديثه يشبه خديعة الفأس، حين يجيء ونصفه حنينٌ للشجرة.

صبيحة أحد الأيام، وبعد تبادل التحية الصباحية المعتادة، فاجأني بقوله "حين يهبط عطرك المفضل على سطح بشرتك الناعمة.. يدوخ!" تاهت مني الكلمات ولم أجد سوى كلمة "شكرًا" للرد عليه.

نتقارب أكثر، وبسلاسة غريبة، حتى بالنسبة لي، نصبح عاشقين. لم أكن أتوقع يومـًا أن أكون عشيقة سريّة لرجل متزوج، بل إنني كنتُ أمقت النساء اللواتي يُقمن علاقة مع رجال متزوجين، وأشبههن بفتاة الليل التي تضاجع

غرباء مقابل بعض المال، وتظل تسأل كل مساء: هل من موتى جددٍ أخبِّئهم في عتمتي؟

لم أكن أتخيل أن يحدث هذا الأمر لي شخصيـًا؛ أن أصبح عشيقة سرية تشيخ في عتمة الظلال، لكن الواقع أغرب من خيالنا المحدود.

جناح الفراشة هش، لكن حماقتها أكثر هشاشة.

هكذا، في مدينة غريبة، وبين يدين ليستا لي، تصالحتُ مع جنوني.

كانت لديَّ خيطان شكّ معقودة، حول ما يشاع عنه أنه زير نساء، لا ينام في سرير امرأة جديدةٍ مرَّتيْن، لكن عندما سألته عما إن كانت هذه الأمور صحيحة أم لا نجح في نفيها وتهدئتي. قال لي وهو يُلّون أكاذيبه إنه أحبَّ في الماضي، أما الحاضر والمستقبل فهما لي أنا.

دفعني فضولي إلى سؤاله عن حبيباته السابقات، فقال ضاحكـًا:

حسنٌ أيتها المحققة. لا أستطيع أن أحصي أسماء النساء اللواتي تسبين في تضخم قلبي، لكني كنتُ أحتفظ أيام العُزُوبيَّة بملابس داخلية نسائية كثيرة في خزانة ملابسي. كان هذا في زمن مضى، فلا تنبشي في قبور الذكريات.

أبتلعُ لساني، رغم شعوري بعدم الارتياح. مُثْقَلة بِمعاطِفِ الشَّكِّ، لكنني عاشقة.

يزورني في بعض الأمسيات مثل خفاشٍ قديم يتهادى إلى الحقل، فلا أشعر إلا بالظلام.. وأصابعه التي دَربَها الوَقت.

عند نقطة ضعف الليل نلتقي.

كان حسيـًا في أحاديثه الخاصة معي، وكانت مشاعري تتأرجح بين الضيق من هذه الحسية، والإعجاب برغبته بي.

قال لي في مكالمة هاتفية:

- أوَدُّ أن نستحم معـًا؛ كي أدلل لكِ جسمكِ تحت قطرات عابثة، وأداعب تفاصيلكِ السخية، وأوزع عليكِ قبلات الشغف، قبل أن ننصهر، والماء شاهدُنا المندهش.

- لا أستطيع مجاراتك أيها الشقي.

- عندما تستحمين، انظري إلى أعلى. ستجدين قطرات المياه تتسابق في بهجة لكي تتزلق فوق بقعةٍ من عالمكِ المدهشة. الماء الذي يجري الآن على جسدكِ كأفعى الغواية، يُخرج لي لسانه.

يهز كلامه أعماقي. أحِسُ بأني غريقةٌ تُقاومُ ماءً يشتهي أن تكون خليلتَه. يلتقط ذلك من نبرة صوتي، فيقول: دعي لي هذه الرعشةَ المعلّقَة على حبلِ الصوت كخيانةٍ مؤجّلة إلى يوم القيامة.

لم أكن واثقة مما أعنيه بالنسبة له. هل أنا زهرةُ النوم أم صندوق السر أم أغنية التعب؟!

"أروع ما في جسدكِ أنه يناصب حمالة الصدر العداء. دعيها تحمل حبتيك المفرطتين في الحنان. دعيها تلتصق بالجسد الحنطي الذي يحدثه الانتظار. دعيها ترتج، وتحتج، وتطلب حق الانفلات، لكن حين تستيقظ حمالة صدرك البهيّ بين أصابعي.. ستفوح منها رائحة الدوار"

أرد عليه بلوم يخالطه الدلال: "إنها المرة الأولى التي أريد أن أقص لسانك فيها، أيها المخادع الكبير

أبعده عني في دلال، لكنه يجذبني نحوه في الفراش، ويقول ضاحكـًا "في صحة النهد المنتصب شوقـًا وخلاعة، ونخب الباقي من ملابسنا الداخلية".

نمارس الحُبَّ بشغفٍ لا ينتهي.

حين يلمسني، يصرخ كل شيء في بهو الجسد، تشفّ الليالي تحت ثوبي. وعندما يداعب براعم سرية، أتقمص روحَ خاطئة.

فقط حين يصعد بشفتيه مارًا بطريق الحرير، باتجاه جنتي المدوِّخة، ومتجولاً في بستاني السريّ، ستهديه الأقدار أسرار فن الارتقاء.

يهمس في أذني بعباراته الغامضة المُسكرة، في ذروة الوصال قائلاً: "كم أوَدُّ أن أحيا في كهفكِ الطريّ"!

أكتشفُ معه أن السرير مدار الحقيقة.

نندس بين الأغطية والمفارش، فيهبط غارقـًا في بحيرتي الوادعة، ليمنحها بعض الصخب الممتزج بالولع.

يضاجعني حتى يتألم الجيران. بين ذراعيه، أمخر عُبَاب السرير بلا مجاديف ولا أشرعة.

عصرًا، كان يعصرني عصرًا.

يستل الشوقَ من غمده غزوة غزوة، ويخوض الغزوات بحضنٍ ولمسة؛ ثم يمنح النَّصْلَ حُريةَ الطعن المباح.

في العلاقات الحميمة نعرف معنى لذة الفناء. إنها حُمرنا التي نسفحها كالملوك، ثم يتضح لنا أننا عبيدها الأذلاء!

حين كنتُ أرتدي ثيابي، طلبتُ مساعدته لإغلاق سحاب فستاني. قام ليساعدني وهو يقول بخبث: "شكرًا لمن اخترع سحاب الفساتين ووضعها في الظهر. إنه بطريقة ما يحثنا على التكافل الاجتماعي"

لعبة الورق حاضرة في بعض سهراتنا.

نلعب الورق كعاشقين؛ كعابثين. لابد من فائز وخاسر.. وجائزة تليق بعشقنا والغواية التي لا يناسبها التهذيب المفرط.

بين المتحابين، تكون شروط اللعبة.. لعبة!

وفي مرح العشاق، للفوز مذاقٌ خاص.

أحِبُّ طريقته في إنهاء يومي. مباغتته لي وأنا أقرأ مثلًا وإقصاء كل شيء عداه. أحِبُّ حرصَه على أن أنام وهو الحقيقة الوحيدة في.

في ليال كثيرة، صرتُ أسيرة البيت، أدخن سجائري بشراهة، وأنتظر اتصالاً هاتفيـًا منه كي يقول لي فيه إنه قادمٌ للقائي بعد ساعة مثلاً. أتشبث بالمحمول كأنه سلاح. لو كان بيد شهرزاد هاتفٌ ذكي، لانشغلت به عن شهوة السرد والحكي.

أكرهُ الانتظارَ، لكنني أنتظِرُه بسعادة.

تلفُني السعادة المتوهمة كأنها حَمْلٌ كاذب.

أهيأ له، وأطارد فراشةً منقطة خفيفة اسمها الوقت. فردوسي يومض باللذة؛ صدري مرفأ يتأهبُ لرعدة العشق؛ ربلتا الساقين، وثلم الوركين، وفقرات الظهر التي تتعامد على مناطق التقاء الكتفين.. كلها ضوءٌ بعيدٌ يسربله السحر، ويتوهج حين يدق طبول رغبته.

أنتظر، وأنتظر، والوقت عدو، قبل أن يهشّمني الانتظار.

صار الانتظار زائرًا مألوفـًا وطقسـًا آثمـًا في علاقتنا المضطربة.

هلاكٌ بالتقسيط. والأقساط ندفعها من حرائق الروح.

كم وعدَ وأخلف وعوده، لكنه كان يعتذر بلباقة عاشق وذرائع زوج.

حتى عندما يغادر تحت جنح الظلام، كانت كلماتُه تمارس معي ذلك التنويم المغناطيسي، كأن يقول لي: أصعب مهمة يقوم بها رجل، هي إقناع فخذين جميلين وقدمين يضربان أرض جنونه احتجاجاً، أن عملاً ينتظره في الصباح.

حرصي على خصوصية علاقتنا دفعني إلى التواطؤ معه في لعبة التكتم، خاصة في ردهات المجلة وغرفها المغلقة. لم يكن سهلاً أن يرى أحدنا كيف يتحادث الآخر مع آخرين من دون أن يكون جزءاً من الحديث.

أمام مقر المجلة، هناك عيون دائماً مرتابة تنتظرك في الخارج، كي تتفحصك وتراقب خطواتك وأنت تتدثر بمعطفك تحت جنح الظلام. جُلُّ هؤلاء جاؤوا من بلاد الضاد، محملين بإرث الفضول الذي يدوس ببجاحة على قدم النميمة كي تشاركه وليمة الثرثرة.

في أحد الأيام، كنتُ في كافتيريا المجلة، حين اقترب مني أسامة، بكيانه الضخم المترجرج كما قِرْبة عملاقة داكنة.

وجدتُه يحاول التودُّد إليَّ بشكل مبالغ فيه. بدا مثل عقرب ينتظر أن تَخطو إليه فريستُه. هناك من يعتقد أن في الوقاحة جاذبية تمنحه بريقاً خاصاً.

في لحظةٍ خاطفة، باغتني بسؤال لزج عن مخططاتي لنهاية الأسبوع. مططتُ شفتيّ وقلتُ له: لا شيء يذكر. ربما أتفرغ لتنظيف المنزل والتسوق. ارتسمتْ على وجهه ابتسامة ماكرة وهو يقول: لوحدك؟!

- ماذا تقصد؟

- أبدًا. فكرتُ في أنه إن لم تكوني مع أحدهم، يمكنني أن أتفرغ لمساعدتكِ في ترتيب المنزل وخلافه.

يا لوقاحته!

أرمقه باحتقار عيناي تقولان له إن هناك لعنة تقف أمامي.

مُزعِجٌ جدًا، ومُقرِفٌ جدًا أن تعاين حقيقة أحدهم المُزرية؛ بالعفَن المدفون في أعماقه يطفو ويطفو، قبل أن ينفجر في وجهك.

سرعان ما اكتشفتْ أن أسامة ليس الوحيد الذي يعلم بأمر علاقتي مع أكرم، وأن النذل يتباهى أمامهم بأسرارنا الحميمة معـًا!

مكائد بعض الرجال خالية تمامـًا من الرجولة.

أسوأ شيء هو عندما يتغير الصديق أو الحبيب من شخص آمن كمنزل جميل إلى كائنٍ يثير الاشمئزاز ويولد شرارة الكراهية، يتعمد تخريب روحك كما لو أنها منديلٌ ورقي.

حين اكتشفتُ وضاعته، وعرفتُ كم هو مستغل، امتلأتْ عصافيري عن آخرها بالجنون!

واجهتُه بالحقائق التي تسقط عنه قناعه الزائف، وحدّثته عن استغلاله لي، فارتبك مثل كهل فقد شاربه. يَقف عاجزًا، يَتصَبَّب عَرَقـًا وخَجلاً، ويَدور حول نفسه، لعله يجد لنفسه مخرجـًا من تلك الغلطة الفادحة.

أنظر في عينيه.. وأسحقه، قبل أن آمره بالخروج من بيتي، فأهزم ظله المرتبك على الحائط.

صفقَ الباب وراءه، ومضى في قطار الغياب.

لم أنمْ جيدًا في تلك الليلة الباردة الممطرة. كيف باغتتني الرِّيح بالأسئلة؟

أستيقظ في اليوم التالي فأقول لنفسي: اللعنة؛ كل الذين قتلتُهم في حُلمي البارحة، ها هم يعودون إلى الحياةِ اليومَ مثل كوابيس بمخالبَ جارحة!

أمسح صوره من هاتفي بإصرار، متناسية أن الذاكرة في القلب.

القلب الذي يضخّ وجهه وصوته وضحكته في رأسي.

أجهش باكية أمام هاتفٍ خالي الذاكرة.

اكتأبتُ لأسابيع، وسقطتُ في بئر العزلة، كأنني وقعتُ للتو من ظهر الحياة.

حياتي مُدماة كمناديل مرضى السل، وشائكة كأسلاك الحدود. أريد لدخاني نارًا، وليقيني شكًّا، ولجداري نافذة.

ما عساي أفعل بنفسي؟ لا موتَ يطلبني ولا تقبلني حياة.

في مكان العمل، صار الجو مشحونًا بالشماتة، وضحكات الناس كأنها صفعات متلاحقة تسفع خدي. قلوبُهُم وِشَاياتٌ لا تُرَوِّضُها النيران.

تتدحرج ابتساماتهم بين الصفاء والنفاق، وهم يسألونني في استخفاف: كيف حالكِ؟

هؤلاء ليسوا أصدقاء. الصديق الحقيقي لا يسخر منك في مجالس النميمة، ولا يشمت فيك. لا يجعلك محط قهقهة الآخرين، ولا يستغلك في استعراض خفة ظله في حضورك أو في غيابك.

هؤلاء أشعلوا سيرتي وقوداً لسهراتهم ومجالسهم الخاصة. الأوغاد وحدهم ينتظرون الطوفان كي يُجربوا مراكبهم الورقية.

ألعن نفسي وألومها. خطأ أن تجعل نفسك عاريًا مثل ضوء. ستلاحقك الظنون كأنها ظلك.

يبعث لي برسالة نصية تقول كلماتها: مازلتُ أحبُّكِ. لا بأس أن تنقلها لكِ صديقةٌ مقربة أو رسالة نصية أو وسائط إلكترونية، ما دامت تطرق باب قلبكِ أيتها الغاضبة.

أزدادُ حنقًا عليه، وأحذف رسالته وأنا أشتمه في السر والعلن.

يلح في الاتصال بي هاتفيـاً، لا أرد على اتصالاته المتكررة. أوقن أن ابن آوى لا يعي معنى الندم.

أحسم الأمر برسالة نصية تقول كلماتها:

"رجاء عدم الاتصال بي ثانية. سؤالك عني مثل عدمه. لقد أفاقت الطَيِّعةُ من غيبوبة الخديعة. لم يعد صوتك يخمش قلبي، الذي تعافى من حبّك. المشكلة أن تجربة التعافي من هذا الحُبَ مؤلمة للغاية"

جميلة تلك العبارة: "لم تعد تعني لي شيئـاً"؛ كتبتُها ونمتُ بهدوء.

على مدى أسابيع، أكتشفُ معنى الأرق وعذاب النوم المتقطع. في جوف العتمة، توقظنا الكوابيس بلا رحمة، في حين تنام الأحلام عوضـاً عنا.

ثمة ليل لا ينام!

يسرقني الليل في جلبابه الطويل. أسير بجانبه لا يلحظني أحد، أذهب برفقته إلى منفذ الكون، لكنني أظل عالقة على عتبته المتوحشة. أسهر، حتى تقفز روحي إلى عالم الفجر.

لا نعرف من الذي يقتل الساعات ويضعها في جيوب ملابسنا، فإذا أوينا إلى الفراش أخرجنا جثثها وبدأنا نصلّي عليها، حتى مطلع الفجر.

لا أحد مستيقظٌ في جوف الليل سوى المتأخرين في أعمالهم منذ الأمس، والناعسين في بيوتهم، وبعض العصافير التي تحادث الشجرة.

الصباح حتى الآن في مأمن.

مع الأيام، كلُ شيء يُصبح لا شيء.

يُعلمني الزمن كيف أنسى ألم سقطتي الأولى هنا.

نسقط، ونخشى أن تتحطم قوارير تذكاراتنا الغالية، حتى نكتشف أنها فارغة إلا منا ومن أحزاننا.

في مرآة ذاتي، أبدو امرأة سريعة العطب.

حسنٌ، لقد حزمتُ أمري أخيرًا. سأترك هذه الكآبة، حتى تتعثر بها غبيةٌ أخرى.

المارون بين سطور الحكايات نحو العدم، لم يُخلقوا إلا لغبار النسيان.

(١١)

في المستشفى الكبير، يكتمُ المرضى أنينهم إشفاقـًا على أحِبَّتهم، فتغرق الكلمات في المقاعد.. وبين المرضى وأحبتهم نظرات صامتة ودموع موؤدة أقرؤها وأسمعها بوضوح.. وأتطلع إلى نهاية اليوم؛ لأمشي في الغابة وأحكي عنها للأشجار.

المستشفيات ليلاً أماكن موحشة، كل ما فيها مرهِق وكل من فيها مرهَق، ينتظرون أول شعاع للشمس على أمل انتهاء وردية العمل أو العودة إلى عالم المتعافين.

"سأموتُ من الألم"

يقولها الرجل المسن بأنفاس مكتومة، وهو يشير إلى بطنه المنتفخة. كان يعاني حالة انسداد تام في الأمعاء بسبب الورم المنتشر في جسده، وهو ما يعني أنه لا يبالغ. كل دقيقة تأخير تُقربه حرفيـًا من الموت.

أخبرتُه أن العلاج لم يعد مُجديـًا. للحظات، امْتَصَّهُ الغُبار الكَونيّ، قبل أن يرفعَ رأسه في وهن، قائلاً: زفاف ابنتي بعد شهرين.. فلنحاول مرة أخرى!

أحفظ جيدًا ما قاله لي يومـًا البروفيسور هوارد: نحن لا يمحونا الموت، إنما يمحونا العجز عن ممارسة الحياة.

عندما تكتشف إصابتك بالسرطان فإن كل شيء يُغريك للإقبال على الحياة، لعلك تحتفظ منها بقدرٍ أكبر من الذكريات الجميلة.

قالت لي ليزي إنها منذ أن اكتشفتْ إصابتها بسرطان الرئة، بدأتْ تحِبُّ أشياء وتفاصيل كثيرة، حتى مواء القطط في المساء، وابتسامة جارتها الكولومبية الأصل وهي تنشر سجادتها القديمة في الفناء الخلفي المجاور. تقول: "كنتُ أتحسس شعري، وأتضرع لله بأن أموت دون أن أفقد منه شعرة واحدة. كانت فترة استحمامي طويلة؛ إذ أداعب شعري بالشامبو، وأضمه إلى صدري، وأشمه؛ ثم أبتسم في أسى"

تتألم مع كل خطوة. تسمع بأذنها أصوات عظامها كأنها تتكسر على بعضها. لا يمكنها أن تثني مفاصل ركبتيها أو ظهرها.

في إحدى مرات مروري على المرضى، أشارت لي بأنها تشعرُ بألم في ذراعها. أنظر إلى الممرضة، فتسرع إلى الإمساك بيدها، قبل أن تُرخي الأنبوب المغذي المغروس في جسدها الواهن.

تتحسس وجهها الذي اكتسى بلونٍ يشبه الطباشير؛ ثم تقول لي بلا مقدمات: "مرهقة كأنني ناجية من معركة. لو أن ألمي كان عُقب سيجارة لأحرق العالَم"

صراع الإنسان الجوهري، ليس مع الموت، إنما مع الزمن، هذا الطاغية الذي لا يلتفت لرغباتنا الصغيرة ولا ينصت إلى ندائنا بالتمهل قليلاً.

البعض يأتي إلى المستشفى متأخرًا بضعة أشهر أو حتى سنوات، وهو ما يعني عمليـًا تضاؤل فرص الشفاء.

لا أحِبُّ أن تتوه خُطُوطُ التّماسِ مع الوَهم، لكنني وباقي الطاقم الطبي في المستشفى نقاتل، ونحاول، ولا نيأس.

تسألني الممرضة سوزان: هذه القضية الفاشلة منذ سنين وضعتها أنتِ على أجهزة الإنعاش.. متى تفصلين التيار؟

أرد عليها بإصرار: "أخصائيو الأورام لا يعرفون اليأس"

لولا الأمل لانطفأت الأنوار في غرفة الحياة.

كأننا نحن البشر في هذه الحياة قطع شطرنج. يدٌ خفيـّة تُحركنا، وعلينا أن ننتصر.

لعل أصعبَ لحظةٍ عشتها في المستشفى كانت عندما سألني طفلٌ مبتور الساق متى تنمو ساقه مرة ثانية!

كأي أخصائي جراحة ورم يُقدس مهنته، أهتم بإخلاص حقيقي وأقرر أن أجري العملية فورًا، إن لزم الأمر. غير أنني أتذكر دائمـًا حق المريض في إبداء رأيه واختيار طريقة علاجه، كلما كان ذلك ممكنـًا. مريضتي جنيفر منهكة من العلاج الكيميائي وتطلب تأجيل العلاج، وسط اعتراضات زوجها. يريد أن تنهي علاجها سريعـًا. أصر على أن الرأي النهائي يعود لها وحدها.

أمر على سرير مريضة في الخمسينيات من العمر، وعولجت من سرطان البنكرياس منذ عام. أراها اليوم كبقايا إنسان، وأحتار فيما أقول عندما تخبرني أنها تود أن تستعيد صحتها وعافيتها.

تزورني مريضة تعمل في سوق الأوراق المالية. جميلة ومتأنقة. تضع المكياج بدقة، وتدخن بمعدل ٣٠ سيجارة يوميـًا. أخذتْ تلعب في وجنتها بظفر مطليّ بالأحمر، مقشرة بشرة وهمية عنها، وهي تسأل عن مصير شعرها بعد العلاج. أنظر في صور الأشعة إلى الورم الذي يحيط بالرئة اليسرى، وأقرر عدم الإجابة.

أتحدث مع مريض في حضور زوجته. بالكاد كان يتمكن من الجلوس بسبب آلام حادة في الظهر؛ لأن العظام كانت تتآكل وتضغط على الأعصاب، كما عانى ضعفـًا في الساقين. بدا الكرسي المتحرك حلاً مناسبـًا لحالته في تلك الفترة.

عمر زواجهما يقارب عمري. تشكو في وجوده من قسوته معها، رغم أنها تتألم لألمه وتخشى رحيله. يعتذر وتدمع عيونهما.. وكل من في الغرفة.

لستُ شكّاءة، ويُضايقُني الشكّاءُون، لكن في حالة الضعف الإنساني النبيل، تبدو الشكوى شكلاً من أشكال الاحتياج إلى من نُحِبُّ.

"الإنسان مهنتي"، كان ردي على طالب شاب سألني "كيف تذكرين هذه التفاصيل الصغيرة في حياتهم؟"

كيف لمن سمع كل هذه الحكايات وحاول أن يخفف من كل تلك الآلام أن يغمض عينيه وينام كغيره!

لم يَعُدْ منَ اللّيل غيْر اسْمِهِ، ولم يبق من حكايات المرضى إلا الأسى.

بعض الحكايات تصيبني بالأرق. أفكر فيها، فأقوم من فراشي وأتحسس زر الكهرباء، ليغشاني نورٌ مفاجئ، قبل أن أتجه إلى المطبخ لأصب لنفسي كوبـًا من الحليب البارد، أو أضيء الحمام وأتشاغل بالنظر إلى ملامحي في المرآة المستديرة، أو تصفيف شَعري لدقائق، قبل أن أرفعه للأعلى، وأنا أضع المشبك الناعم بين أسناني.

أتفقد غرف الأبناء، وأحاول التأكد من نومهم الهادئ المستغرق في الأحلام.

عليَّ أن أتحمل جعبة الليل في صدري، وأبقى وحيدة.

أخرجُ إلى شرفة الطابق العلوي، في محاولة لاستنشاق هواءٍ لم يمر برئة أحدٍ غيري. أفكر في تخصصي الطبي الذي يجعلني في مواجهةٍ دائمة مع الموت. تترك كل نفسٍ تصارع نهايتها أثرها في روحي. أشعر بمسؤوليتي عن كل قصة وداع في تلك الغرف البيضاء.

سئمتْ كل هذه الضغوط النفسية.

متى يتقاعد النهر عن نقل الجثث إلى الضفة الأخرى؟

أفكر بأني كنتُ في المقابل سبباً في نجاة كثيرين من موتٍ مبكر أو مؤلم. مجرد سببٍ لمنع الموتِ من ضم ضحايا جدد إلى لائحته الطويلة.

تَنعس الملائكةُ فوق كَتِفي، فأعود أدراجي إلى سريري.

نحن أطباء الأورام، لم نُخلق لننام ملتصقين على فراش ناعم. هذا ليس دورنا. عرفنا أنفسنا طواعية مثل كتفٍ يحمّل بالمشكلات دون أن يرتخي لها مرة.

الدنيا تصغر في عينيك كلما كان قلبك حكيماً.

قبل أسبوع، قال لي غاري بحروف مشوهة إنه يتمزق ألماً بسبب حالة زوجته. رجاني أن أنقذها. طيّبتُ خاطره وهدأتُ من روعه. قلتُ له مواسية: تأكد أننا سنفعل.

لم أقرأ في حياتي، عيوناً ممتنة وشاكرة مثلما قرأتُ في عيون هذا الرجل على امتداد الليلة التي شهدت خضوع زوجته لجراحة ناجحة لاستئصال الورم من ثديها.

يبدو أنني لم أبالغ في فهم ما قرأت.

في اليوم التالي، وجدتُ على مكتبي باقة ورد جميلة مع بطاقة فيها كلمات شكر رقيقة من الزوج السعيد بنجاة زوجته من الداء العضال. أقرأ كلماته وأبتسم: "أنتِ شالٌ أبيضٌ ينام على كتفيّ كل مريض. أشكركِ من صميم قلبي"

للإنصاف، كان مِنْجَلُ الموت أقوى مني في وقائع لا تُحصى.

مرة أخرى، يموت بين يديّ طفلٌ اليوم. عيناه الفارغتان، والغائبتان، بالونةٌ فَرَّتْ من يد صبيةٍ إلى المجهول.

عندما مات مريضي الصغير مارك، نزل سربٌ من العصافير.. اصطف على جانبيّ الطريق.. ذاك الممتد من انبساط الأرض حتى أعلى السماوات، كأنه في انتظاره.

شاهدتُ أفراد عائلته، الذين أخذوا يبكون في إيقاعٍ واحدٍ، في وداع أجمل مريض سرطان في العالم.

بكيت. أهي دموع ضعف الحيلة أم التسليم بالغياب؟!

الفرق بيننا وبينك يا مارك، أنك لم تعد تتنفس الأكسجين، أن رئتيك لم تعودا صالحتين لاستيعاب الهواء المكفهر الذي يغلف الأرض؛ لم تعودا تتكمشان وتنتفخان على وقع أحداث هذا العالم التي تصيبنا بالحزن وربما الاكتئاب.

لماذا أخلدُ إلى النومِ وأنا أفكرُ في مَوتاي؟

في أيام الشدة، الصبر والأمل هما دواء أهل الإيمان. رغم الصَّوْتِ الحائر بداخلي، فإنني أتماسك، بفضل رصيدي في بَنكِ اليقين.

أتلو في سري بعض قصار السور، وأردد دعاءً أحفظه عن ظهر قلب: "اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، مُذْهِبَ البَاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لاَ شَافِي إِلَّا أَنْتَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمـًا".

الدعاء فِرْدَوْس المُعَذَّبين.

مع كل نتيجة فحص أو صور أشعةٍ أو حالة مرضية في مرحلة متأخرة، أجدني أمام امتحانٍ عسير، لا أنجو منه إلا بقليل من التماسك، ودافعٍ من الأمل، وثقة في الله وعظيم قدرته.

في المساء، أحاول استكمال قراءة كتاب عن الذكاء العاطفي. كم هي منهكة أحاسيس البشر ومثقلة بمشاعر لا تفسير لها؛ كُره يجاري الحُبّ، وشوقٌ يوازي النفور، وهدوء يُغويه غضب جارف، وفرح يخنقه الحزن.

(١٢)

الحُبُّ، مكانٌ يقصده المرء ليداوي قلبه.

في أمسية شعرية، رأيتُه لأول مرة. كان يُلقي قصائده بنبل وكبرياء. وحين يرفع نبرة صوته يبدو مثل قاض يؤنب متهمـًا.

كان رؤوف شاعرًا وسيمـًا، يحمل تلك الهالة التي تحيط برؤوس المبدعين الكبار. الجمال الظاهر مثل القبح الظاهر، كلاهما يلفتان النظر ويديران الرؤوس.

وجهه منحوتٌ بوضوح، لكن، في نظرته يجري نهر الحيرة والقلق، الذي يشوبه اليأس، بما يشي بدرجاتٍ متفاوتة من الوهن الداخلي.

يقفُ أمامي مِثل جبَلٍ يلاطِفُ غيمة؛ مثل إله الرِّيح حين يرتَعِشُ الغُبارُ في يَدِيه كلما خلعَ سُتْرَةَ السكون.

أنشدنا بعضـًا من شعره الذي يسرقه من الضوء ثم يخبئه في جيْبِ المَجَاز:

"دعيني أجهر بكِ:

رطبة، كأنكِ تمرةٌ يتذوقها لسان الخيال؛

ضاحكة، تخدشين بالعبث والكبرياء سطح الإدراك وقاع النشوة؛

وحيدة، مثل غموض ممرات ضيقة؛

آسرة، شفتاكِ هلالان تائهان في فلك الرضاب؛

فاتنة، كما لو أنكِ ثقبُ بابٍ يشي بفتاةٍ تُبدل ملابسها؛

رائعة، الحديث معكِ أشبه بغيبوبة قبلة؛

غواية صامتة، ما إن يباغتني جسدكِ المشاكس حتى أضيع كإبرةٍ وسط قش الكلام؛

لعوبٌ، لا تؤمنين برجلٍ يطرقُ الباب.. تريدين رجلاً يقفز من النافذة؛

ياسمينة، تُخفين تحت بياض قميصكِ النديّ سنبلتين من أسرار الغرام"

أنصِتُ إليه، وهو يشْعِلُ النَّارَ فَي اللُّغَة. عيناي تقولان له وحده: "لا تعرف مدى قوة الكلمة منك؛ تُذيب القلب. تثير العاطفة. تهيج المدامع والأغنيات. تدفع للرقص؛ للغناء؛ للحلم؛ للرسم؛ للبكاء على صفحةٍ لكتابة نص"

اقتربتُ منه، وشعري المعقود لأعلى يقول له "مرحبـًا" استأذنته في إجراء حوار صحفي معه للمجلة التي أعمل لديها، ولفرط دهشتي، وافق على الفور. شعرتُ أنني أكاد أسيل من عينيه في لحظة افتتانه الأولى.

في اللقاء الصحفي الموعود، أدرتُ جهاز التسجيل، وأخذتُ أستمع وأستمتع بكلماته الأنيقة. لم أجازف بإخراج دفتري وقلمي أمامه مرة.

قال لي يومها إن "الشعر هواية وليس مهنة؛ هو اللهو الممتع الذي كنت أريد الوصول إليه في صباي، ونام على صدر أيامي التالية"

أتأمل ملامحه في صمت. عيناه نافذتان، وشعره الأسود الفاحم منسق بعناية. منحه الله شفتين بسطوة إله، وبراءة طفل، وحنان عاشق.

سألني وسط حوارنا:

- ما اسمكِ؟

- فرح.

– الاسم رسمٌ ووسم. فمن أيقنَ أن الاسم عنوان محبته، وقر في قلبه جوهر تلك المحبة. أنتِ تنتمين إلى السعادة، وإليكِ ينتمي الفرح. اسمٌ يزهو بصاحبته، وصفة تتباهى بصحبتها. فمن مثلكِ؟!

تروقُ لي كلماته، كما أهوى قصائده العاطفية. التي تُناسب مزاجي الخاص، وتعزف على أوتار قلبي.

أستفسرُ منه عن سبب تعلقه، وهو الشاعر المهموم بقضيته، بنظم قصائد الحُبَ والشغف، فيقول:

"أكتبُ عنهم وعنكم، كي أعمر الأرض، وترفع زهرة الياسمين عنقها في البستان السخي، وتتخلى القصيدة عن بعض حيائها فتذكر أسماء حبيباتنا ولو ضمنـاً في شطر خفي بلله ريق الهوى.

أكتبُ، كي يتخلل النور الألواح الخشبية في نوافذ متآكلة، وتبتسم شوارع جانبية تتلكؤ ليلاً، حتى يخترقها عشاقٌ سريون يجيدون اختلاس القُبل"

أسأله عن طقوس الكتابة عنده، وأوقاتها، فيرد قائلاً: "المرارة لا تنظم شعرًا ربما تليق بالنُواح. على الشاعر أن يكون حُرًا وهو ينظم القصائد، وإلا أصبح موظف أرشيف أو أمين مكتبة. الشعر يأتي حين يريد، بلا طقوس ولا إشارات. صنعتُ أشياء من رملٍ طيني لم يصنعها أحد؛ لأن قوام الرَّمل عَصيٌّ على التشكيل. لا أستطيع الإدلاء بطريقة صنعي للمباني الصغيرة. إنه شيء يبرهن بالعجن لا بالوصف"

أحاول مباغتته قائلة: "من أنت؟" يجيب قائلاً: "أنا نبيٌّ وحيد. لا أملك سوى قلبي وأوراقي، وظلي المرتبك. تفوحُ رائحة الأسى من صدري، كلما هبَّت عليه ريحُ الذكريات".

بعد إجراء الحوار، دعاني إلى العشاء في مطعم هادئ. لم أجد بأسـًا في ذلك. كنتُ أحدس إلى أين يقودنا هذا الانجذاب.

على المائدة بمفرشها الأبيض وكؤوسها اللماعة وشموعها الحالمة، سألني ونحن نطالع قائمة الطعام: نباتية؟

أجبته: إلى حدٍ ما.

رد مبتسمـًا: أما أنا، فمن أكلة اللحوم. زمان، كنتُ مع إخوتي نجبر العظم على أن يفقد عِفته بعد أن نُعريه من كسائه الشهيّ.

ضحكتُ من القلب.

أستأذنه في الانصراف. لا أريد أن يُقال: تركتْ الرغبة تندلق من ساقيها، بعد مصافحةٍ عابرة.

حين خرجنا معـًا من المطعم، وكانت مصابيح السيارات تمرق ليلاً لتعكس على وجهه أضواءها، كنتُ أفكر بجمال روحه. بامتزاجها الهائل بالليل والظلام. بوسامته الفاخرة.

أخذتُ أتصيد مفتاح باب الشقة، وابتسامتي عالقة على وجهي. راق لي هذا الرجل كثيرًا، حتى أنني نسيتُ انزعاجي من الباب الذي يبكي مع كُلّ صرير.

تعجبني الأرواح الراقية، التي تحترم ذاتها وتحترم الغير. تتحدث بعمق، وتطلب بأدب، وتمزح بذوق، وتعتـذر بصدق.

لغة العيون لها أسرارها ومعانيها ورسائلها.. هي الأصل في شجرة الجسد.

أعيننا تبادلتْ الرسائل وبريق الوعود. الغواية الصامتة بليغةٌ بلاغة شَفَةٍ تشفي؛ إذ تذوب في انسجام.

إن اجتمع إعجابُ العين مع غرام القلب، داخ الكون من أرومة هذا الحُبّ.

النشوة التي باغتتني كانت تشبه انفلات الفراشات من أكمام القميص.

كل شخص أعرفه انبهر ذات يوم بشخص آخر. كلنا انبهرنا بآخرين في طفولتنا وسنين مراهقتنا وفصول نضجنا وشيخوختنا. تختلف أسباب الانبهار، ومدده. تارة كان الانبهار للحظة وتارة يومـًا أو أيامـًا وشهورًا وتارة سنوات.

ولكن يحدث أن تتمنى مع إنسان ما أن يمتد الانبهار عمرًا وألا تخبو لمعة الانبهار ولا تنطفئ. ترفض أن يتعود عليها الشخص المنبهر فتصبح عادة، وترفض أن تتجاوز حدودها فتؤذي.

قد لا يكون في قلبه مكانٌ إلا لعلاقاتٍ ناعمة تفيد في شحن بطاريات الإبداع. أما قلبي فكان يخفق سريعـًا ويتصارع مع عقلي. إنني في نصف عمره، وديني غير دينه، لكنني وقعتُ في غرامه.

رقيق، وكلماته من سِحر. ماذا يكون الحُبُّ من دون كلمة حُبٍّ؟

في اليوم التالي، كنا نحتسي الشاي، حين قال لي:

– صوت إفراغ كيس السكر في الكوب، يشبه دويّ سقوطي في حُبّكِ.

– من أنت؟

– أنا عودُ الثقابِ الذي فُض من رماده لأجلك.

– الغابة يشعلها عودُ ثقاب؛ شحمة الأذن خير برهان!

– شباكٌ مفتوح على الكون.. أنت.

يدلل اسمي القصير بصوته المنضبط، فيتراقص قلبي كفستان زفاف.

بعد نحو شهرين، كان يمسك ذقني بين أصابعه، وهو يقول لي: تمتلكين مَلاحة الياقوت. ليتني قارتكِ الوحيدةُ المتبقية، وليتكِ كوكبي السريّ المجهول.

تشتعل الأمزجة بالزق، فنغيبُ في قبلةٍ تعيد تعريف كلمة الحياة.

يطبع قبلةً على شفتيّ تمحو الماضي، وأخرى على عنقي تحلم بالمستقبل.

أتيه في كلماته وهو يخبرني بأنني سره الجميل؛ يصرف رفاقه وزواره، باكرًا، لكي يتفرغ لموعدنا. شقته أنيقة وبسيطة الأثاث. اللونان الأبيض والأسود تنويعتان ظاهرتان في معظم القطع الموزعة على أنحاء البيت. على الجدار لوحة لطفل جميل يحدق للأمام وفي عينيه الدامعتين حزنٌ آسر.

يتصاعد إلى عينيه ألق السعادة، التي تغمره – مؤقتـًا– كلما صرتُ بصحبته. الجدران عند العشاق ليست سوى مكان يحتوي من نحب أو طيفه.

عندما كنتُ أواجهه بعينين حائرتين عن مآل تلك اللقاءات، يجيبني بأن صداقتنا تساوي مئة حُبّ.

أقول لنفسي: وما كان الخوفُ إلا خوفـًا مِن الوقوعِ فِيكَ!

كان يهاتفني، في منتصف الليل، لكي يقرأ عليّ نصوصه الجديدة.

لعلني كنتُ الذي ألحُ عليه كي يهاتفني، خاصة عندما قلتُ له ذات مرة: لا تدع مساءكَ يُغلق عينيه عني.

يرد ليطمئنني:

"صوتكِ هو آخر ما تبقى لي.

ضحكتكِ هي آخر قروشي القليلة.

الصوت سلطانُ الدلال وعنوان سطوتكِ الراسخة.

ستظلين يا آية المرمر غيوبتي المفضلة"

الكلمات الجميلة هي ثمرنا المباحة.

أستمع إلى صوته وقصائده؛ ثم أذوب في نُعاس بلّوري.

فوجئتُ به في أحد لقاءاتنا يضع أمامي ورقة تضم ستة عناوين، قبل أن يخاطبني قائلاً: اختاري لي عنوانـــين من هذه القائمة ليكون أحدهما عنوان ديواني الشعري الجديد.

يومـــاً ما سأكتب عن الشاعر الذي يحتكر القصيدة، ويمنح العنوان ديمقراطيته الفريدة.

كلما امتدحتُ قصائده زاد شعوره بالأسى. كان يقول: ما يشقيني أن الكلمة سيف، لكنها تُنسى في عصر الزيف!

أرد عليه مواسية: في النهارات المسكونة بالهواجس والوساوس، متعبون كثر، سيدُهم الظمأ على قارورة شعرك كي يرتووا حد السكينة.

خط يده ساحر، كأنه سردابٌ خفيٌّ ولا نهائي.

يده نفسها تشبه الوقت؛ ذاهبةٌ وذائبةٌ ولا تتراجع. أنيقة، لكنها صارمة.

غمر روحي بالطُّمَأنينَة وهو يقول لي ذات لقاء: "جسدكِ المصبوب للخفة، له هوية تشبه اليقين. كم أوَدُّ أن أكتبَ عن رائحتكِ. لا تسأليني كيف أعرفُ رائحتكِ. لا أتحدث عن عطركِ، بل رائحة أنوثتكِ التي تصيب بالدوار. تلك الرائحة التي تُربك الشارع وتَعلق في الستائر، وتبقى طويلاً بعد أن تغادري المكان"

هكذا يمتلئ بي العاشق، فيذوبُ.. ولا يتوب.

معه، أدع جسدي يسافر مع الحنان. يده ترتب فوضى جسدي المسكون بالهواجس والقلق، وتوضب الضجر المختبئ في روحي.

أسير تحت المطر كعادتي التي تكره حمل المظلات رغم تنبوئي بالهطول؛ يحثّ المارة خطاهم بينما أسير بهدوء؛ الماء سر الحياة، حتى حين تصبه السماء على رؤوس تحتمي منه بمظلاتٍ تشبه قبة الكون.

لا أفكر إلا فيه وفي صوته حينما يُحدّثني وقد استيقظ من نومه للتوّ.

أقول له: في كل مرة أقتربُ فيها منك، تتسع حدقتا عينيّ "اللحظة" بالدهشة، تلتقط لنا صورة لتعلقها على جدار الذاكرة. عقلي لا يكف عن استدعائك. تخرج من صفحة كتابٍ أقرؤه، تعرقل أفكاري في سيل الحوارات اليومية، وحتى استرخائي حين انغماسي في حوض الاستحمام تزاحمه!

تنبتُ وردة على صدري وهو يقول لي: "لما احتوى نهدَكِ الملآن، أشرق القميص"

أحِبُّ القلق في عينيه حين أعبث بوقاره.

– ماذا لو تسللتْ أصابعكَ هذا الصباح واجترحتْ معجزاتٍ صغيرة في عالمي؟!

– أنتِ مشاكسة خطيرة. متى تكبرين؟!

– ولماذا تريدُ أن أكبر؟! أحِبُّ أن أعيش وهمي الزهريّ، أجدلُ ضفيرتي الجذلى بشرائط طفوليّة، ومن فرحي، ألوّنُ فراشاتٍ ألصقها على دفتري.

– هذه المرة أتفق معكِ. ليس في العمر متّسعٌ لترميم براءتنا وتقليم قسوتنا.. ورتق جروح القلب، وثقوب الروح.

– إذن، لا تترك فمي جائعـــــاً هذا المساء؛ أطعمه قصيدة من ثغرك.

لا شيء يتقن الحوار كالقبلات.

يستأذنني: هل تسمحين بقبلةٍ فوق نهدكِ، ذلك الذي فوق قلبكِ، حتى أطمئن على مكاني المفضل.

- كُلّي لك.

كُلُّ ما تريده المرأة من رجلها هو أن يكون مخلصـًا لسِرّها ولسُرّها.

صباحه يصطفيني.

يقول لي: سأكتب لكِ كلماتٍ على راحة يدكِ لن يمحوها الوقت ولن يزيلها الماء.. كأنها وشمنا الخاص.

شفتاك مغريتان، كأنهما حقول محبة واشتهاء. كم أوَدُّ أن أقبلهما برفق وتلذذ، قبل أن أطمع في قبلات أخرى على كل بيوت الحلوى في جسدكِ الجميل. أغمضي عينيك وتذوقي قبلات الصباح، تتلمسكِ برفق حتى يستيقظ جلدكِ أولاً.

ستكون أول قبلةٍ أعلى النهد، تطرق أبوابه بخجل.. والثانية تستأذنه في الدخول على عجل.

حروفي تنام على وسادتكِ وتحت أغطيتكِ وفي المسافة بين ملابسكِ وجلدكِ.. إنها تحاصركِ وتُلهب مخيلتي الجامحة.

هي التي تعتني بصباحكِ وتؤثث فضاء حكايتنا، وفي الليل تصنع فوضانا المحببة؛ تفك لكِ سحّاب فستانكِ، وتنزع عنكِ حمالة صدركِ، لتجعلكِ عارية إلا من جمالكِ.

من قلب البساطة يأتي الجمال الاستثنائي.

في حديثه الصوفي، يذوب قلبي. ذبتُ ذات مرة حين همس لي قائلاً: "لا تندهشي حين تجدين اسمكِ مكتوبـاً في قصائدي. حين أتذوق اسمكِ، تنقر أصابعي حروفه على لوحة المفاتيح تلقائيـاً.

الإيمان بغيركِ جاهلية؛ هكذا تصبحين ديني الجديد"

يلمس يدي برقةٍ آسرة، ويُحدثني من القلب. ويخط على راحة يدي كلمة "أحبّكِ"

"أحبّكِ" على راحة اليد هي الحياة كلها بلمسةٍ واحدة.

في الغرام، كل التفاصيل غير معفاة من اللوم.

حتى حرصه على صحتي، ونصائحه غير اللحوحة لي بالإقلاع عن التدخين، أتقبلها وأبدو سعيدة لسماعها، رغم أني لم أستجب لها في نهاية الأمر. لم يبدُ مرتاحـاً لنوبات السعال التي تهاجمني في الصباح. اقترح عليّ زيارة طبيب يعرفه، لإجراء فحص طبي شامل. قائلة: لا داعي لذلك. الأمر لا يعدو أن يكون التهابـاً في الحلق أو حساسية. لا أريد أن يملأ الأطباء حياتي بألوانهم البيضاء ومستحضراتهم وأجهزتهم بلطفهم وسطوتهم ثم بسحابات الصمت التي تغشى ملامحهم: أطباء ينذرون بالمرض أكثر من الصحة ويتولون مقاليد سلطةٍ لا قبل لأحد بمناهضتها أو إدارة الظَهر لها.

في نوبات إلحاحي، كنت دائمـاً ما أسأله في دلال: لماذا لا تكتب عني؟

كان يقول لي: "لأنني أعيشكِ"

كنتُ أشعر بالغيرة من شخصياته المتخيلة في قصائده، لكنه حاول أن يشرح لي أن الشخصيات تلك كانت من لحم ودم و عبرت بحيز وجوده من قبل، لكنها بعد أن خرجت من ذلك الحيز أصبح بإمكانه أن ينظم عنها قصائد. قال لي أيضـاً إنه حينما يبدأ في قرض الشعر عن شخصيةٍ ما فإن

وجودها يكون قد اختفى، ويصبح فعل الكتابة أشبه بفعل القتل لوجودها الفيزيقي في حياته، لتحيا كمحض شخصية من ورق مهما حاول البعض إضفاء بعض من الحيوية عليها في متخيلهم. ابتسمتُ، وقلتُ: "أنا لا أفهم شيئـًا مما تقول. كل ما أفهمه أنني أريد أن أعيش طويلاً في قصائدك المدهشة، حتى لو كان الثمن أن أختفي من وجودك للأبد"

كلامه له شكل الجُرح في ندوب الشِعر. هذا الوجع الصوفي لا يخطئ القلب.

قال لي يومـًا: ينام الشعراء ملء خيباتهم على أسرّة من شجن. يغطي الأمل أكتافهم ليلاً برقة،هُم العراة الأزليون على هذه الأرض الرقة. الشعراء لا يموتون؛ إنهم يذهبون الى قصيدة أخرى. أحيانـًا، أُكَلِّمُ لائِحَة أصدقائي على هواتِفِهم بعدَ الرَّحيل، فقط لأحفَظَ صدى أصواتِهم وحنينِي.

حديثه المسترسل عن الوطن أغنية تدور، فلا تمل من تكرارها.

يقول لي: عندي اهتمامٌ بالمستقبل أو الوطن، لا بالنفس وحدها. انتقل الاهتمام الثاني إلى الأول، من دون فظاظة.

أباغتُه بسؤال وجودي:

- ..لكن، ما معنى الوطن بالنسبة لك؟

- الوطن ليس أغنية أو احتفالية. الوطن انتماء في القرب، وحنين في البعد، ووفاء في العهد، وفداء في الجِد، واحترام للتعدد، وإيمان بالإصلاح والتجدد. إنه الوشم المنقوش في القلب، لا السلسلة التي تتدلى على الصدر.

- الوطن له أعداء.. وأنت تقاومهم بقصائدك.

- أقتلُ أعدائي برَصاص البَلاغة؛ ثم أفنى، كعادة كل حمقى اللغة.

صمتَ هنيهة، ثم قال لي إن في حياة الفلسطينيين نكبة واحدة وإن في حياته نكبتين.

لم أشأ أن أكون نكبة ثالثة. ابتعدتُ، لا بل اختفيتُ فجأة من حياته، قبل أن يتكدّس الغيم فوق أحزاننا.

أمارس لعبة الاختفاء أو الاختباء. أتبخر وراء منعطفات الحياة.

انمحتْ دروبٌ للأبد، بمجرد إمالة الْنظر عنها.

أمتنع عن الرد على رسائله واتصالاته، رغم أن بعضها كاد يهزم قلاع صمودي، كتلك التي قال لي فيها: "تغيبين، فأحصي خسائري، ويصير قلبي نارًا أغواها فستانٌ من الماء"

الفراق جارح، كمديةٍ في ظلمة حارةٍ شعبية. أنا الآن أقل حيرة، لكنني أكثر وجعـًا.

نلتقي بعدها بسنوات في حفل توقيع لديوانٍ شعري كان قد صدر له حديثـًا. تأملني طويلاً، كحضور مفاجئ لأشواق منسيـّة، ثم قال لي: لم تتغيري. أنتِ كما أنتِ. فقط كلما نضجتِ أكثر، فضَلتكِ الزهور على البستان!

سألني: أين كنتِ؟

اكتفيتُ بالنفخ في نار الفضول قائلة: كنتُ في الجانب الآخر من المرآة. بعد صمتٍ دام لحظات سألته: وأنت؟

رد قائلاً: في هذه الحياة التي تتسع مثل الفضاء مرة، وتضيق مثل عين البخيل مرات. ما زلتُ كل ليلة ألملمُ الثرثرة من حقول الخيال. لم أعد سوى

حارس الليل؛ أحرس ساعاته الثقيلة، علّكِ تفاجئينني بعد كل هذا الغياب باتصال هاتفي يحمل اعترافكِ الشهي: اشتقت لك.

أردف بقوله: هيامي بكِ لا ينقضي، وممتدّ كأبوة آدم. قد نكون افترقنا، لكن عطركِ وتبغكِ وأسراركِ عالقة في ثيابي.

بأي معجزة تُستأنف النار الخامدة؟

نظراتنا الحائرة تشبه جنازة ضلت طريقها إلى المقبرة.

في نهاية اللقاء، عانقني وهمس في أذني: كيف يشاء عاشقٌ أن يسلو نبيّته ونبوته التي تشبه السعادة؛ كلما تذكرها ابتسم!

كدتُ أقول له: لا يليق بك العناق السريع.

أحسد هؤلاء الذين حينما تنتهي حكاياتهم، يمتلكون القدرة على القول: شكرًا.. مع السلامة!

لم يعد بيننا اتصال أو تواصل إلا نادرًا، عبر فيسبوك. وحيدون جدًا هؤلاء السكان الأصليون للعالم الافتراضي.

كلّما تأملتُ الصُّورةَ الوحيدة التي جمعَتنا، وجدتُ نفسي أكثر شعورًا بالوحدة من ذي قبل.

يهديني أغنية سعاد محمد "أوعدك" في رسالة خاصة على فيسبوك.

لم أكن متأكدة ما إذا كانت هذه مجرد أغنية أم بقايا شرارة الحُبَ الذي بيننا. لم أعد أستطيع تمييز إن كان هذا مجرد حرف أم رسالة مخفية في زجاجة لي!

عندما غيّرتُ صورة البروفيل، كتب لي رسالة خاصة تقول كلماتها:

"في كل مرة تلتقط فيها الكاميرا صورة لكِ.. يجترح الكون معجزة صغيرة. في تلك اللقطة المسروقة من الزمن، لن ينتبه أحدٌ إلى بحيرة العسل في عينيكِ، ولن يفهموا أبدًا لحن الرقة في نظراتكِ الآسرة.

لهم الله، العالقون في ماء صورتكِ الجديدة،

أيتها المرأة القصيدة"

أكتبُ له ممازحة:

"رؤوف، لا بدَّ أنك نسيتني يا شاعري الوسيم"

يرد بثبات:

"لا تصدقيني حين أقول: نسيتكِ.

حاولتُ كثيرًا، وسافرتُ في البلاد والأجساد؛ لكنني كلما رأيتكِ نسيتُ أن أنسى!"

سقط قلبي في يدي، وسقطتُ أنا من دائرة الحياة.

(١٣)

اليوم هو يوم المقابلات بامتياز.

أشارك في لجنةٍ تجري مقابلات مع المتقدمين لتخصص الأورام بعد أن أنهوا تدريبهم في قسم الباطنة. ٤ من أميركا الجنوبية، وفلسطيني، وسوري، وهندي وتركي.

أميركا مغناطيس لموهوبي العالم.

على مدار ٤ ساعات، استمعنا إلى قصص كفاح سبعة أطباء شباب وطبيبة ممن قرروا التخصص في علاج الأورام. كلهم أجمعوا على أن فصل عواطفهم أو تقنينها مهارة يصعب اكتسابها.

أخذتْ لجنة المقابلة المؤلفة من أربعة أساتذة تطمئنهم على أن القدرة على التواصل مع مرضى الأورام تتحسن بالممارسة وأن إلغاء مشاعرنا تمامـًا مع المرضى غير مرغوب أو مطلوب.

ما جذبني شخصيـًا إلى بعض المتقدمين هو ذلك الهدوء والثقة (دون غرور). أتخيل وجودهم كأعضاء من فريق العيادة وكيف سيتعاملون مع المرضى والممرضات.

الشاب التركي الذي أخذ يطرق على الطاولة لتأكيد وجهة نظره وهو يتحدث، تسبب في إصابتنا بالتوتر العصبي طوال نصف ساعة، فما بالك بعامين دراسيين تاليين!

الفلسطيني يوسف، ليس لَهُ مِنَ النبي سوى اسمه، لكنه واعدٌ ونابه. يبدو بطموحه جائعـًا لتحقيق النجاح في مهنة الطب.

الطموح أمرٌ جيد، لكن التنافسية الشديدة مثل كهرباء الضغط العالي: مميتة.

لم يكن الطالبُ الجديد الذي جاءني لتقديم شكوى إدارية قد أفرغ ما في جوفه من ضيق، حين طرق الباب سائلٌ جديد؛ طالب قديم من مر بالمدينة مرورًا عابرًا فأتى يتفقد المكان الذي درس فيه ويصل الود مع أناس جمعته بهم عِشرة وذكريات قبل أن تتقطع بينهم السبل. ممكن صورة؟ قالها الشاب الزائر، فرددت مرحبة بكل تأكيد.

خرجتُ من خلف المكتب وضممتُ سترتي في وقار استعدادًا لصورة تجمعني بطالبي السابق، لكنه عندما ناول الكاميرا بتلقائية شديدة إلى الطالب الجديد ليلتقط صورتنا دون سابق معرفة، كان آخر ما توقعته هو أن يرد الأخير قائلاً: لكني أنا أيضـًا أريد مكانـًا في الصورة! لم يمانع الزائر، وخرج يبحث عمن يؤدي المهمة، حتى إذا حانت مني التفاتة إلى ذلك الطالب الجديد الواقف إلى يساري بهرتني ابتسامة صافية على شفتيه، وكأن شيئـًا لم يكن!

في استراحة الغداء، أقمنا حفلاً صغيرًا وسريعـًا لتكريم سوزان، ممرضتي الأثيرة إلى نفسي.

ها هي تتقاعد بعد ثلاثة عقود في التمريض. بدا لنا أنها تكبر للأسفل. تكبُر للتقوّس على ذاتها أكثر فأكثر. تكررتْ معها أخطاء الشرود والنسيان في

الفترة الأخيرة، مع تزايد آلام المفاصل وساعات العمل الطويلة. حسمتْ أمرها، وتقدمتْ بطلبٍ للتقاعد. متى نتعلم أن ننسحب في الوقت المناسب؟

نتبادل كلمات المودة الخالصة والامتنان لهذه الصداقة العميقة والطويلة بيننا، فإذا بها تقترب مني وتهمس لي بوصيتها الأخيرة: "سارة، اسمعيني جدًا. أنتِ في حاجة إلى التمتّع بالحياة، ونسيان الميزان والسعرات الحرارية ومراقبة مقاسات الملابس التي ترتدينها. لا أريدكِ أن تقولي لنفسكِ يومـًا: أنا أحيا، لكنني لا أعيش"

تُبعثرني نصيحتها، فأعانقها وتنحدر من عيني دمعة حزينة.

لأسبابٍ اجتماعية وأخلاقية، أرى أن كل ما يخص الجسد ورغباته هو من الأسرار التي أفضل عدم البوح بها؛ لذا تبقى قابعة هناك في ركن قَصِيّ من النفس، أتحدث عنها مع الآخرين بتحفظ وخجل، وأعاني بسببها في صمت جارح. قد لا يدري المحيطون بنا لماذا نحن محبطون إلى هذا الحد، مستنفرون وعدائيون مع شركائنا، تسيطر علينا الهواجس والأفكار السلبية، تنال منا الأمراض وحالات التعب والإرهاق، لكنه الإحباط الجسدي، وتحول أجسامنا إلى آلة منذورة للغياب.

نحرص على التقاط بعض الصور التذكارية مع الجميع أولاً، ثم صورة خاصة تجمعنا نحن الاثنتان فقط.

في تلك اللقطة الأخيرة، كانت الصورة ترتجف، والكاميرا تشعر بوحدةٍ قاتلة.

على هامش الحفل، وجدتُ نفسي منغمسة في نقاش حول تدخين الأطباء.. هل هو حقهم كغيرهم أم أن دورهم بسبب عملهم يتطلب ممارسات صحية أفضل؟

هناك مستشفيات في الولايات المتحدة ترفض تعيين المدخنين، وتحارب السمنة بإزالة ثلاجات المشروبات الغازية، وتحفز الموظفين على إنقاص الوزن والرياضة.

عند نقطةٍ معينة، وجدتُ النقاش يسير في اتجاهٍ ما، فالتزمتُ الصمت.

الصمتُ اعتراضٌ لطيف، وليس بالضرورة موافقة ضمنية.

حين عدتُ إلى البيت، اغتسلتُ لأنفض عن نفسي ضغوط العمل المتزايدة. أمام حوض المغسلة، نظرتُ في المرآة وأخذت أتأمل ملامحي. تسربتْ شعيرات بيضاء إلى شعري الأسود الفاحم.. الذي كان.

كم تكشفُ لنا المرايا بصراحتها القاسية بعض ما نتحاشى رؤيته، كما لو أن لنا عيونـًا تخشى أن ترى الحقيقة!

كل ما في هذا الكون يخدشني.

ضايق خاتم الزواج إصبعي. حاولتُ خلعه ففشلت. قلتُ لنفسي: قد يُريحني الصابون من هذا العناء. كدتُ أفقده بعد أن أفلتَ من إصبعي واستقر في حوض المغسلة، لكنه، لحُسن الحظ، لم يسقط لأكثر من ذلك. ألتقطه وأعيده إلى مكانه؛ ثم أكمل ارتداء ثيابي.

عليّ أن أرسل لإدارة المستشفى الجامعي نسخة مُحدثة من سيرتي الذاتية. يا لها من مهمة!

تحديث السيرة الذاتية من أكثر الأشياء صعوبة. كيف أشرح "لهم" أنني أفضّل أن أعمل وأن أترك للآخرين الحديث عما يمكن أن أنجزه.

أقرر تأجيل الأمر قليلاً. ما زال هناك متسعٌ من الوقت.

فور دخولي إلى البيت أحسستُ بكمّ الفراغ الذي خلّفه غياب الأبناء. هدوء موحِش يُغلّف المكان.

تَعِبتُ منَ الرتّابة والغياب.

خالد تخصص في الكيمياء ونال درجة البكالوريوس في جامعة توليدو، وها هو يستعد للتقدم لدراسة الطب في جامعة ستانفورد.

أما رامي فقد انضمّ إلى برنامج Pre-Medicine في بنسلفانيا بهدف استكمال دراسته لاحقـًا في الطـب. كلاهما بعيدان عني. منذ غادرا، أجد صعوبة في مسح دموع الغبار الصغيرة من سريريهما ومن خشب الأبواب الأبيض.

يبدو صغيري وليد الأقل اهتمامـًا بالدراسات العملية؛ إذ يتحدث عن رغبته في دراسة الأدب المقارن، ويمارس هواية العزف على أكثر من آلةٍ موسيقية مع رفاقه، الذين يتدربون سويـًا في مرآب منزل أحدهم.

يعشق وليد الموسيقى مثل جده لأمه. كم أشتاق إلى أبي!

لا بدَّ أن أزوره في القاهرة في أقرب فرصة.

يخونني لسان حالي، فأراقب الصمت الذي يلف المكان في هدوء.

يدلف سمير من الباب، ويُلقي عليّ التحية، قبل أن يجلس على أقرب مقعدٍ يجده. يفك ربطة العنق قليلاً، وهو يقطّبُ حاجبين كثيفين يلتهمان نصف ملامح وجهه، لكنه يطوي حناياه على تلك الخفقة المقدسة.

– ما بك؟

– صداع شديد. كان يومـًا مرهقـًا.

– الطعام جاهز.

– تناولتُ أظن أني بحاجة إلى أخذ حمام دافئ وقسطٍ كافٍ من النوم.

يقبلني على رأسي، ثم يمضي إلى غرفة النوم.. أوليس هذا اسمها؟!

أشعرُ بثقلٍ في رأسي. رأسي ثقيل. لا بدَّ أنني أصبتُ بالدوار لكثرة ما تلفعتُ برداء الطيبة والتسامح.

أستعيد كلمات سوزان. فقط من يتقنون المصارحة مع الذات هم الذين يدركون اللحظة المناسبة لتصحيح مؤشر بوصلة حياتهم.

النسيان حرية.. لكن الوقتَ يعاقبنا بالتذكر.

أنشغلُ لاحقـًا بمتابعة الجدل الدائر في مصر بعد وفاة السيناريست نادين شمس في مستشفى خاص، نتيجة خطأ طبي.

أتأمل صورتها الوادعة، وأقرأ تفاصيل ما جرى، فأنزعج لأسباب مهنية وإنسانية.

خطأ طبي يزهق روحـًا ويرهق أرواحـًا أخرى.

رحلت نادين شمس، ضحية خطأ آخر من تلك الأخطاء التي تلتهمنا وتقتات على أرواح من نحب.

غادرتنا فجأة، كأنها تقول لنا مودعة: كلنا ضحايا خطأ ما بشكل أو بآخر.

رحلت تلك الهادئة التي تمتلك دومـًا نظرة ذاهلة وصمتـًا لا تخترقه إلا الكتابة.

كان شعرها الأشقر المهوش يقول لك: هلا نظرت إلى أفكاري أكثر!

لا تبحثوا عن صورها، فهي لم تكن من هواة الصور الشخصية، وحتى في اللقطات التذكارية أو الجماعية كانت تقف في أقصى المشهد، ربما تناساها عدسة الكاميرا ولو قليلاً.

نادين شمس، التي امتلكت بين جوانحها عاصفة تتأهب لاقتلاع الزيف، وافاها الأجل، تاركة وراءها محبة من عرفوها جيدًا ومن التقوا بها مرة أو مرتين..

فالمحبة كالموت، لا تستأذن أحدًا.

(١٤)

"فكري في الأمر. إنها فرصة جيدة وبداية جديدة"

قالت سهى لي تلك الكلمات، ثم قبلتني على وجنتي مودعة.

كان العرض مغريـــاً. فرصة عمل في التفاحة الكبيرة: نيويورك.

كنتُ بحاجة إلى مثل هذه المحطة الجديدة البعيدة، كي أتنفس هواء مختلفـــاً.

كان العرض هو تقديم برنامج "توك شو" في محطة إذاعية عربية في نيويورك.

حزمتُ أمري سريعـــاً، واستكملتُ إجراءات السفر.

حين سألتني صديقتي منى عن سبب قراري هذا، قلت لها:

-أرفض البقاء هنا أسيرة العبودية.

-عبودية؟

-نعم، إذا كنتَ مضطرًا لقبول القيام بعمل لا تحبه أو مع أشخاص لم تعد تطيقهم؛ لأن حجم رغباتك أكبر بكثير من قدرتك على تحقيقها دون قبول القيام بهذا العمل. مرعبٌ نهوضك كل يوم لتمارس الروتين نفسه. تغسل وجهك دون أن تدرك الذبول في روحك التي تنكمش. الشعرة البيضاء؛ أثر القلق؛ الهالات التي تتركها الدموع.

هزتْ رأسها، ربما لتبدي عدم موافقتها، لكنها لم تتمكن طوال الأيام التالية من أن تثنيني عن قرار السفر.

هناك نساء أصبن بلعنة الغجر، فلا يعرفن معنى الراحة أو السكينة، وينتمين تلقائيـاً إلى ذلك الفيلق الضائع الذي يمارس التيه برضاه.

يقيم زملائي في العمل حفلاً في وداعي. حلوى وصور تذكارية وتعليقات مبكرة عن الافتقاد. أشكرهم، لكنني أعلم بعض الابتسامات الزائفة تعكر صفو عدسة كاميرا التصوير.

قبل يومين من الموعد المرتقب، شعرتُ بآلام حادة في الصدر، وضيق تنفس. أمام حوض المغسلة، اكتشفتُ أن السعال مصحوب ببلغم دموي. أخذت أنظر إلى هذه البصقة الحمراء في ذهول كأنها لم تخرج من حلقي. أدرتُ صنبور المياه ليتدفق منه ذلك السائل الشفاف بوحشية، وينقض على نفثة الدم لتختفي في القاع، كأن لم تكن. ظهور آلام صدرية ـــ

رغم تلك الآلام، فإنني قررتُ تجاهلها وعدم زيارة الطبيب. شعرتُ بأن سفري قد يساعدني على استعادة صحتي الضائعة.

قبل أن أترك بيتي هنا، شعرتُ بغصةٍ مفاجئة. الذكريات لها مذاقها المُر أحيانـاً. أغلقُ الأبوابَ بهدوء، كأنني أودِّعها.

أقلتني منى إلى المطار، وكانت رولا بصحبتنا. كان الوقتُ ليلاً. وحدها أضواء سيارتنا تكسر حدة اللون الأسود الذي تألفه الطرق الموحشة. صوت الإطارات يلتهم أسفلت الطريق، ووحدتنا تكبر مع كل علامة إرشادية. ينهمر المطر على زجاج السيارة الأمامي، فيما تدور ماسحات الزجاج بسرعة مزعجة.

ساد صمتٌ حزين في السيارة، إلى أن رفعت رولا أهدابها الطويلة المبللة بالدموع وحدقت فيّ. كانت تريد أن تسأل، لكنها تراجعت في اللحظة الأخيرة، وقررت أن تقول لي شيئـًا آخر: سنشتاق إليكِ.

طفرتْ مني دمعة، مسحتها سريعـًا وأنا أردد قائلة: لن تتخلصا مني بسهولة.

عادت ضحكاتنا المبتورة لتشغلنا طوال الطريق إلى المطار.

في صالة السفر، تمنيتُ لو أني أحمل معي حقيبة لا تمتلئ بجثث الماضي المقطعة الأوصال.

دفعتُ قيمة الوزن الإضافي، ثم أصبحتُ أخفَ قليلاً.

شغلتُ نفسي بفتح قائمة المسجلة أرقام هواتفهم على هاتفي. أخذتُ أحذف من أرى أن سفري هذا في لحظتي هذه سيكون نقطة قطيعة بيني وبينهم. توقفتُ كثيرًا عند بعض الأسماء التي احترتُ في مصير علاقتي معهم من الآن فصاعدًا. بلمسة زر يختفي أشخاص من حياتك، ربما إلى الأبد.

جلستُ القرفصاء في ركن قصيّ من القاعة، ووضعتُ حاسوبي فوق بنطالي الجينز وأنا أحتسي قهوتي الساخنة؛ لأقطع الوقت، حتى حان موعد الصعود إلى متن الطائرة.

بعض البدايات مقدسةٌ لدرجة أنها لا تُنسى، ونبيلة، حتى أنها تصبح ذكرياتنا الأثيرة.

تبدو نيويورك ملفـًا مضغوطـًا للعالم.

لن أنسى ذلك الرجل الستيني الذي ظهر صباح اليوم التالي لوصولي في تمام الساعة الثامنة صباحـًا؛ ليرشدني مع آخرين سيرًا على الأقدام في المدينة الكبيرة.

كانت هذه هي:

The Grand Walking Tour of New York City.

لم أكن قد فعلتُ هذا من قبل في أي مدينة أخرى. لا أذكر اسم هذا النيويوركي الأصيل، لكن صورته محفورة في ذاكرتي، لما جعلني أشعر به طوال نحو ١٤ ساعة من المشي لرؤية وسمع وشم ولمس وتذوق المدينة. نعم، يوم كامل من السير المتواصل، مع التوقف فقط للغداء والعشاء في مطاعم محلية.

لن أنسى ما حييت ذلك الرجل المتقاعد، النشيط، في الستين من عمره العاشق لمدينته، الذي يقوم بهذه الجولة كل أسبوع كي يرشد الطلاب الزائرين إلى حُبَ مدينته. تكلفة الجولة لا تتعدى ثمن الغداء والعشاء في مطاعم رخيصة، وتذكرة عودة بالمترو يعطيها لنا في بداية اللقاء، ويقول: "سنرى من منكم سيمكث طوال الرحلة. كل واحد منكم حُر في أن يتركنا وقتما يشاء، إما تعبـًا، وإما لأن شيئـًا في المدينة جذبه إليه أكثر من رحلتنا. لكن أعدكم أن من سيظل منكم معنا سيشعر بشيء لن ينساه طوال حياته"

وقد كان!

حين أدركتُ في نهاية اليوم، قرب منتصف الليل، أنني قد "مشيت مدينة نيويورك"، شعرتُ أنني احتويتها بصيغة ما أو بأخرى. تعرفتُ على شوارعها وقابلتُ وجوه زائريها وتفحصتُ قاطنيها وأنصتُ للغات المتحدثين فيها ولكناتهم.

للفضول عضلةٌ مفتولةٌ، دائمـًا ما تأخذ بخناق صاحبها.

في المترو، وجدتُ أحدهم يتحدث إلى جاره عن أحوال الطقس، في حين يشمُ آخر رائحة الحُبِّ في جلد امرأة تجلس قبالته. ابتسمتُ في وداعة، رغم شعوري بالإرهاق.

أثناء رحلتي، جئتُ من العاصمة واشنطن إلى نيويورك باستخدام حافلة عامة، بها خدمة الإنترنت وأماكن لشحن الكمبيوتر والهاتف المحمول. السائق يقدم الرحلة على أنها برنامج ترفيهي، صوته وهو يتحدث في الميكروفون ويضحك ويضحكنا يجعله يبدو كأنه في برنامج إذاعي. في بداية الرحلة قال "أهلاً بكم! وأوَدُّ أن أدعوكم "عائلتي" حتى وصولنا. ربما أبالغ، لكن اهتمامي بسلامتكم سيعادل اهتمامي بأسرتي" يمزح فيقول: "اسمي ستيف. يمكنكم أن تنادوني به: فحين تودون شيئـًا بخصوص التكييف أو الإنترنت لا تقولوا: Hey you أنت يا أصلع! ولكن قولوا لي: ستيف!"؛ يضحك كل من في الحافلة ونبدأ الرحلة. يصمت تمامـًا. الرحلة هادئة ومريحة. حين نصل يُضحكنا ثانية بدعاباته، ولكنه يتركنا مع بعض الحكمة، قائلاً: "أهلاً بكم في نيويورك. أتعرفون؟ هذه مدينة قد تكون قاسية. تمامـًا كما هي الحياة. ولكن حين تقسو الحياة، فتسقطنا، تذكروا شيئـًا واحدًا كي تنهضوا واقفين، وهي أنه: إذا استطعتم النظر إلى أعلى، فإنكم تستطيعون النهوض إلى أعلى"

بالنسبة لي، هذا ما يميز نيويورك. المرشد الستيني المتقاعد، والسائق الأقرب لمذيع الراديو، والمواهب التي تتدفق على المدينة طموحـًا في أن تنتمي إليها. كل هذا يجعلها مدينة غنية بناسها قبل اقتصادها، وفنها، وصخبها، وأضوائها.

قبل سفري إلى هنا، لم أكن واثقة من أنني سأحِبُّ هذه المدينة. الآن، أنا مغرمةٌ بها إلى حدٍ كبير. على القناعات أن تتعرض لصدمات من وقت إلى آخر

اندمجتُ بسرعة في حياتي الجديدة وعملي في المحطة الإذاعية الصغيرة. فريق العمل كان خليطـًا من جنسيات مختلفة، لكن غالبية الفنيين كانوا من أبناء الأجيال الجديدة التي ولدتْ وترعرعتْ في أميركا، حتى باتت أصولهم العربية مجرد أطياف بعيدة وحكايات عائلية متناقلة دون صلةٍ شخصية حميمة بها.

كنتُ أتحدث في برنامجي عن قضايا وهموم عربية مختلفة، اجتماعية وإنسانية وبيئية وحتى رياضية، مع عقد مقارنات مع المجتمع الأميركي وثقافته. قضايا

المجتمعات العربية تبدو أكثر وضوحـًا عندما يتسع إطار الرؤية وتقارن بينها وبين مجتمعات وثقافات أخرى.

أتكلم عن حال مجتمعاتنا العربية، عندما تألف الظلم، وتتطبع معه: الخادمات نموذجـًا.

لا يكاد يمر أسبوع حتى تصعقنا أخبار عن وقائع تعذيب خادمة على يد أسرة عربية، سواء أكانت تلك الأسرة مقيمة في مشرقنا الكبير، أم زائرة أو مهاجرة إلى الغرب مثلاً.

لا أدري من الذي يمنح إنسانـًا السلطة أو السطوة كي يمارس القسوة حد التعذيب على خادمةٍ أجبرتها الظروف على العمل لدى أسرة كي تحصل على قليل من المال لها أو لأسرتها.

قلتُ في برنامجي إني أشعر بخجل قاتل كلما نظرت في وجه أي "خادمة" "الخادمة" (على الطريقة العربية) صورة ظالمة كفكرة، بصرف النظر عن حُسن معاملتها. حُسن المعاملة قد لا يزيد الظلم، ربما يخففه، لكنه لا يرفعه. الظلم قائم بمجرد وجودها في بيت لا يحق لها فيه أن تتعب، أن تغضب، أن تنعس، أن تحزن، أن تتذمر من الأطفال، أن تكلم من تشاء، أن تخرج ساعة تشاء، ناهيك عن ممارسة حقها في حاجاتها الخاصة. بيت يحدد لها نومها وأكلها ومزاجها ومظهرها وحدود اتصالها بالعالم.

قد يتمادى صاحب البيت أو صاحبته، فيعتدي على الخادمة بالضرب أو يتفنن في التعذيب وامتهان كرامتها واستباحة جسدها.

حتى الظلم موضة. وهو أخطر أنواع الظلم؛ إذ لا إحساس بالذنب يرافقه، ولا رقيب يحاسبه، ولا مجتمع يعاتبه. ثمة تطبيع مع الظلم يجعلنا لا ندركه.

في كل بيت، في كل واحد منا، ظالم خفيّ، ظالم بحدود. ومن لا يلتفت إلى الظلم في بيته، لن ينكره خارجه.

تحدثتُ للمستمع العربي أيضـاً عن المجتمع الأميركي؛ أنت في الولايات المتحدة تستطيع أن تستأجر أو تشتري أي شيء. أنت تستطيع أن تستأجر مظاهرة حاشدة تجوب الشوارع وتهتف بما تريده أنت. فهناك شركة مشهورة مثلاً اسمها: "Dial A Demonstration" اطلب مظاهرة بالتليفون؛ تطلب منها ما تشاء وتفصل لك مظاهرة حسب الطلب، بما في ذلك التشكيل العرقي للمتظاهرين. وقد يحدث أن نفس المتظاهرين من أجل هدف معين اليوم قد يتظاهرون غدًا ضده. بل إن الشركة نفسها يمكنها أن تشكل مظاهرتين معارضتين.. هذا ينادي بشيء وهذا ينادي بعكسه.

ليس فقط المظاهرات. بل أنت تستطيع أن تستأجر ضيوفـاً على العشاء. فبعض الساسة المحليين الذين يريدون أن يظهروا بمظهر ليبرالي غير عنصري يحرصون على أن تضم حفلاتهم بعض ذوي الأصول الإفريقية، ولكن المشكلة أنه ليس لديهم أصدقاء أو حتى معارف من ذوي الأصل الإفريقية، وقد حلت لهم العقلية التجارية هذه المشكلة. "ضيوف للإيجار"؛ فما عليك إلا أن تتصل برقم معين وتطلب ضيوفك بالمواصفات التي تريدها.

لقد حلت العقلية التجارية الأميركية جميع المشكلات. إذا وجد الطلب فلا بدَّ أن يوجد العرض. المشكلة الوحيدة هي المال؛ إن وجِدَ وجِدَ كل شيء وإن فُقِدَ فُقِدَ كل شيء.

خارج العمل، شعرتُ بأني غريبة غربة قمرٍ في الصحراء، بعد أن وجدتُ نفسي بدون أصدقاء في هذا البلد المترامي الأطراف. اكتساب أصدقاء جدد قد يتطلب بعض الوقت، وأنا مستنزفة عاطفيـاً، ربما بُحكم شعوري بأني أخوض تجربة اغتراب جديدة.

أقمتُ نحو أسبوعين في أحد الفنادق، وكنتُ أنزل يوميـاً إلى المطعم لتناول إفطاري. لاحظتُ أن المشرف على المطعم، وهو رجل ضخم الجثة وذو صوت

جهوري، يعتقد أني أنحدر من أميركا اللاتينية؛ لذا كان يحادثني بالإسبانية وأنا أرد عليه بالإنجليزية، لكنه كان يتعامل معي بطريقة ودية. كل هذا تغير حين أصر ذات يوم على أن يعرف إلى أي دول أميركا اللاتينية أنتمي، فقلتُ له إني أصلاً من مصر.

قال بوجه تعلوه الدهشة: "لكن مصر في الشرق الأوسط!"، فأكدتُ له المعلومة. عاد ليسألني عن اللغة المستخدمة في مصر، فأجبته "العربية" رجع برأسه إلى الخلف مستغربـًا أو مستنكرًا. تغيرتْ معاملته لي منذ ذلك اليوم، فكنتُ أذهب إليه لإعادة ملء كوب القهوة فيرد عليّ بالقول إن القهوة تُملأ لمرة واحدة، وحين حاولتُ أخذ حبات فاكهة معي إلى الغرفة، أحرجني بالقول إن الأكل في المطعم فقط. ولما نزلتُ من غرفتي متأخرة للإفطار، اعتذر بالقول إن موعد خدمة النزلاء للإفطار قد انتهى، رغم أنه كان متبقيـًا على موعد إغلاق المطعم رُبع ساعة.

سألني ذات صباح سؤالاً غريبـًا؛ إذ قال: "هل صحيح أن كل العرب انتحاريون ويفجرون أنفسهم؟"، كدتُ أن أنصحه قائلة: لا تفتح صندوق السؤال قبل حضور السؤال في ذهنك. تراجعتُ، وأجبته وأنا أتجاهل النظر في عينيه "نعم، معظمهم كذلك" المفارقة أنه بعد هذا الحوار العبثي عادت معاملته لتصبح أحسن من ذي قبل؛ أنزل إلى المطعم فأجده قد أعد لي إفطارًا مخصوصـًا، وقبل أن أفرغ من تناول قهوتي أجد براد قهوة ساخنـًا على المائدة. وإن جئت متأخرة، أجده ينادي عليَّ قائلاً إنه أعد لي الإفطار "تيك أواي"

أقول لنفسي ساخرة: أناس لا يُجدي معهم إلا الانتحاريون!

(١٥)

أحضرُ مؤتمرًا طبيـًا دُعيتُ إليه في القاهرة لبضعة أيام؛ وفي ذهني زيارة أبي الذي يسكن في حي الزهور في مدينة نصر. بعدها سأحضر مؤتمرًا طبيـًا آخر في دبي.

في الطائرة، أشغل نفسي بقراءة "غابو"، اسم التدليل لغابرييل غارسيا ماركيز.

كنتُ أقرأ "مئة عام من العزلة" بترجمة صالح علماني، وأنا أحدث نفسي قائلة: "يا إلهي، كيف كتب ماركيز هذا؟!" لعنتُه بعد كل قراءة لروايةٍ من رواياته الأخرى، ثم ندمتُ على لعنه، لكنني عدتُ ألعنه؛ لأنني أعيدُ قراءته الآن في روايته الأشهر. كان دليلي هو دوستويفسكي، حين قال: "أحيانـًا لا تملك إلا أن تلعن"

يتعمد مطار القاهرة توجيه صدمة أخلاقية وحضارية للمسافر القادم من الخارج.

في صالة الوصول، الكل يتحرك زحفـًا كأنه يؤدي مهمة ثقيلة على النفس.

كان عدد الذين يحملون أجهزة اللاسلكي يفوق عدد المسافرين، وعلى الرغم من أن الصالة خالية فإنه تم فتح "سير" واحد لحقائب طائرتين وصلتا في توقيت واحد، ولم تظهر أول حقيبة إلا بعد هبوط الطائرتين بنصف ساعة!

تبدو أجهزة اللاسلكي كما لو أنها حلية في أيدي موظفين كسالى ينتمون لجهات مختلفة، لكنها إن لم توح بالتوتر الأمني فهي تضمن إضفاء المظهر البوليسي للدولة.

مع ذلك، ليس اللاسلكي، وليست رقاعة الأداء في شحن وتفريغ الطائرات هي كل ما يؤذي المواطن والسائح، بل المنظومة كلها: "كارت" القدوم غير الضروري مع جوازات السفر الحديثة؛ لافتات تبحث عن مسافرين محظوظين على مهبط الطائرة أو قبل العبور من الجوازات؛ عسكري يسد طريق المسافرين بعد عبورهم من ضابط الجوازات للتفتيش على ختم الدخول، وانتهاء بتسول عمال النظافة، الذين يهنئونك على لا شيء بعبارتهم الممجوجة "كل سنة وأنت طيب"، قبل أن يتلقفك سائقو سيارات الأجرة بتوسلات لزجة كأنك صيد ثمين.

ما إن يخرج العائد من الخارج، مواطنـًا كان أم سائحـًا، يدفع أمامه عربة متهالكة ومتعرجة المسار والأهداف تحمل حقيبة سفره، وهو في الغالب مُتعَبٌ بعد انتظارين طويلين، أحدهما في طابور العائدين المصطفين أمام كابينة ضابط الجوازات، والثاني حول "السير" الكهربائي الناقل للحقائب، حتى يقابله، بعد انتهاء معاملاته مع مأموري الضرائب، حشدٌ غريب من رجال ونساء من كل الأعمار يتناوبون على تهنئة الراكب العائد من رحلته في الخارج بسلامة الوصول. كل منهم يحاول القبض بيد حديدية على عربة الحقائب لتوجيهها نحو تاكسي ليموزين بـ"التكييف والعداد" لا وسيلة لإقناع هؤلاء فرادى أو مجتمعين بأن للراكب سيارة خاصة في انتظاره.

لا أمل في إقناع هذا الشاب الممسك بطرف العربة أن الراكب ربما اقترب من حالة الغضب ولا يريد شيئـًا غير أن يخرج أولاً من هذا الحصار الجسدي والأنفاس الحارقة إلى الهواء الطلق. يريد أن يفلت من الازدحام الخانق

والصخب الشديد والتحرر من عشرات الأيدي، التي تُمسك بمقود العربة. يريد أن ينهي رحلته جالسـاً على مقعد مريح في سيارة تنتظره لتنقله بسرعة إلى عائلته وأحبائه.

المطار هو المصافحة الأولى للعين الغريبة، لكنه كذلك يلخص حالة الرقاعة الإدارية التي تجدها في إدارة تأمينات مثلما تراها في بنك غير حكومي، وفي مستشفيات الدولة، أو في المستشفيات الخاصة.

ما تراه العين يقطع كل قول.

وجدتُ أبي على حاله، مع بعض الشيب والتقوس بفعل عوامل التقدم في العمر، لكنه بقي ذلك الأب الحاني، والعاشق للطرب الأصيل وترديد أغاني محمد عبدالوهاب وكارم محمود. كان يلهو بسُبحته ويضربها بكفّيه ويكرُّها ليذكُر الإيقاع ويخطو في اللحن صحيحـاً. غريب أن تتحول السبحة إلى ضابط إيقاع.

أبي إنسانٌ متمرد على التقاعد، يخشى أن ينتهي به الأمر إذا تقاعد إلى أن يقضي معظم وقته ينصت، أو يتظاهر بالإنصات، إلى شكاوى رفاق التقاعد عن آلام عرق النسا "السياتيكا" وآلام الظهر والرقبة والركبتين.

فوجئ بعد سنوات من العمل الكادح أن التضخم النقدي فتك بمدخراته المتواضعة التي خصصها لشراء عش الأحلام في إحدى قرى الساحل الشمالي، فاستكان إلى شقته في القاهرة. يكتفي بلقاءات غير منتظمة مع رفاق وأصدقاء ومعارف، بعضهم لا يسمع إلا قليلاً ولا يتكلم إلا متلعثمـاً أو مستطردًا أو فاقدًا المنطق والتسلسل، وبعضهم لا يرى إلا غيومـاً وضبابـاً. أكثرهم يكابر بتأثير الضرورة أو مستسلم بتأثير المخدر كاتم الألم.

من حسن الحظ أن أبي ما زال يحتفظ بذاكرته، واهتمامه بالموسيقى والعزف على العود.

أعطيه هديته التي أوصاني بأن أحضرها له؛ ريشة فاخرة للعزف على عوده وممارسة هوايته المفضلة.

يدندن بأغنية من كلمات بيرم التونسي تقول:

"هاتجنّ يا ريت يا إخواننا مارُحتِش لُندُن والّا باريز"

ينظر إليّ في امتنان وهو يقول:

عيب أن أعيش في "أم الدنيا" وأجلب أوتارًا وريش نسر لعودي من آخر الدنيا؛ لأنّها غير موجودة في بلادي!

يسألني عن حالي وأسرتي وعملي، ثم يوصيني من مخزون حكمته قائلاً: من يعمل الخير عليه أن يتصرف وكأنه مثل النبي نوح؛ يصنع سفينة في وسط الصحراء قد يأتي يوم يستفيد منها أناس لا نعرفهم في معركة لا نعرفها.

أساله عن حال البلد، فيكز على أسنانه قائلاً: كثُر "الهالوك" و"العليق"!

لم يصلني معنى الكلمة والوصف. فيشرح لي مبتسمـًا: "الهالوك والعليق، لا يتعبان في الحصول على الغذاء من التربة، وإنما يعمدان إلى السطو على جهد نباتات أخرى يمدان جذورهما إلى جذورها، ويحصلان على العصارة جاهزة.. بل إن العليق لا يكتفي بذلك، وإنما يعمد إلى الصعود والتعلق على النبات الذي تطفل على عصارته، ويظل يصعد على ساقه وفروعه حتى يغطيه، ويحجب عنه ضوء الشمس، ويكون العليق أكثر يناعة وخضرة، وترى زهرته التي هي أشبه بالبوق وهي متفتحة رائقة، في حين يبقى النبات عطشان والماءُ في نسيجه"!

يصمت قليلاً، قبل أن يقول: "في عالمنا الإنساني، هناك نماذج لا تنتهي من الهالوك والعليق كما في عالم النباتات، والبراغيث والقراد والبق، كما هي الحال

في عالم الحشرات. وفي بلدٍ يغيب فيه الواحد الصحيح، يكثر الأنصاف.. ويقل الإنصاف"

تعلمتُ منه أنه لا لون يحتكر الحكمة، ولا لون يدعي الكمال. المهم أي رأس يتوج هذا الشَعر الأسود أو الأبيض.

في أرجاء البيت أشعر كأني لم أغادر عصر أُمّي، التي ظلت تحتفظ بأدواتِ مطبخها وأطقم الضيافة، من أطباق وفناجين صغيرة من الصيني تزين فاترينة الصالون حتى وفاتها.

كانت أُمّي ماهرة في إعداد القهوة. احتفظتْ بطقوسها بعنايةٍ ودقة، كانت هي التي تقوم بتحميص البن وأحيانـًا طحنه وحفظه، وهي التي تكيل البن اللازم والماء الضروري وتضبط النار الرقيقة تحته وتراقب حركة القهوة فوق النار صعودًا وهبوطـًا. كانت الصينية التي تحمل معدات القهوة تلمع بصفرةٍ نحاسية مبهرة، والفناجين تزينها رسوم دقيقة والسكرية والملاعق من الفضة الخالصة.

في غرفة نومه، يحتفظ أبي بصندوق خشبي كبير كان يومـًا ما مستودع أغراض أُمّي وأسرارها. أشتاق إلى هذه المرأة التي رحلت وهي في سن النضج إثر نوبة قلبية مفاجئة. صورها القديمة وهي تحملني بين يديها تكشف عن سعادتها الغامرة بطفلتها التي ستكبر لاحقـًا في غيابها. كانت أُمّي مفتاح الحياة لعائلتها ولكل من حولها. فجأة، سقط المفتاح بيد القدر.

إلى الآن، لا أصدق أن بريق عينيها الزيتونيتين قد اختفى من على وجه هذه الأرض، ولا أصدق أن وجهها المبتسم دائمـًا قد صار مجرد ذكرى. أطبعُ قبلة على صورة قديمة لها وجدته في الصندوق، فيبرأ قلبي بالأمان. أمتلك مثلها شعرًا أسود مسترسلاً وعينين واسعتين كعينيها.

أتأمل الصندوق العتيق في فضول. كم هي الصناديق حكمةٌ مغلقة على نفسها!

أجد مذكرة أبي على درج مجاور، مفتوحة على صفحة كتب فيها بخط يده المنمق:

"من تراتيل الحُزن والأمل في سورة يوسف.

عاش يعقوبُ، يتكيف مع أحزانه، على وعي بها، يسجلُها في دفاتر أيامه. أفقدته سواد عينيه، عاش ينتظرُ القميص، تسبقُه ريحُ يوسف [لعلي أجدُ ريح يوسف لولا أن تُفندون،،،]"

ما أجمل تأملات أبي وخواطره الغارقة في الصوفية!

ما أجمل هذا الرجل الذي يقرأُ كلّ يومٍ وِرْدًا، حتى يؤذن المؤذن لصلاة الفَجْر!

صباح اليوم التالي، كان نهار المواعيد ومواجهة الحقائق على الأرض.

القاهرة بها نحو ٢٠ مليون مواطن، يستخدمون شتى أنواع المواصلات: الحافلات، وعربات الكارو، والدراجات النارية، والتوك توك، والمترو، والترام، والقطارات، وطبعـًا السيارات.

إشاراتُ المرور المنطفئة حَقلٌ مُباحٌ للموت.

أما الجمهور فهو لا يقيم وزنـًا لأماكن عبور المشاة، ويتحرك في توقيت متزامن، ليتضاعف حجم أزمة المرور. لغة التخاطب هي نفير السيارات والشتائم والصراخ من النوافذ، والإشارات باليد دلالة على الشكر أو التبرم والاحتجاج.

يواجه المارة وسائقو السيارات في شوارع القاهرة لحظة ارتباك عليا، كلما تواجه الطرفان على الأسفلت القاسي الذي عرفت الحُفر والمطبات الصناعية طريقها إليه بعبثية مفرطة.

كلهم مُعلَقون، فلا أقدامهم على الأرض ولا في أيديهم ممسك. نظرية الطفو على سطح الحياة تبدو الحل الأثير لكل من يحاولون النجاة من ركام المآسي والأزمات المتلاحقة.

في زيارة لمنزل صديقتي نيفين في ميدان الحجاز في مصر الجديدة، عشتُ أحد مشاهد الاختناق المروري في القاهرة.

انتابت سائقي السيارات حالة من الضيق والضجر وهم يحاولون البحث عن مهرب ولا يجدونه. وقعوا في الفخ والأفق مسدود على امتداد النظر؛ إذ يفصل بين كل سائق وآخر عدة سنتيمترات. ارتفع صوت الأبواق المزعجة للسيارات، لا تدري لمن تتجه بالضبط، فلا بدَّ أن في نهاية الطابور الطويل انسدادًا ما غير معروف المصدر.

"لعل الاختناق مصدره ميدان الألف مسكن غير البعيد عن ميدان الحجاز"

هكذا توقع سائق سيارة الأجرة التي أقلتني. إلا أنه تبين لنا لاحقـًا أنه لا شيء يُذكر سوى سيارة قديمة معطلة تسببت في معاناة المئات – وربما الآلاف– طوال ما يزيد على الساعة.

يشير السائق بيده إلى سيارة "هامر" غُطي زجاجها بلون داكن يخفي هوية من بداخلها، ثم يقول: هناك أناس يظنون أن من بداخل السجون هم المجرمون. بنظرة واحدة للعالم الخارجي سنتأكد أنهم ليسوا سوى أصحاب حظ سيء فقط. النظام الجيد هو الذي يحارب الفقر وليس الفقراء.

ترن عبارته الأخيرة في أذني مثل مطرقة ثقيلة. وصفة شعبية صحيحة وموجعة للداء العام.

أنكمش بجانب الشباك وأرتفق بكوعي عليه. أنظر إلى الشارع نظرات تائهٍ ضل الطريق.

يتحرك بائعٌ جائل وهو ينفخ في دائرةٍ صغيرة من البلاستيك فتنطلق فقاعات الصابون، وتطير وترتفع وتنتشر وتختلط بذرات التراب في أجواء القاهرة، ثم ترتطم الفقاعات السحرية بزجاج السيارات فتحدث بقعاً كبيرة قذرة، خاصة عندما يكون هناك أكثر من بائع فقاعات هواء في إشارة المرور الواحدة. خلاصة الواقعية السحرية في شوارع المحروسة؛ فقاعاتٌ مدهشة، شفافة حيناً وملونة في أحيان أخرى، تندفع بحرية للتسلية في حالات الانتظار التي قد تطول، يعرضها أشخاصٌ يبيعون الهواء في زجاجات متعددة الأحجام.

ألمح دراجة نارية يقودها رجل بدين ضاحك، يجلس أمامه طفل مبتهج، وخلفه تقعد زوجته المبتسمة وهي تحمل طفلاً. أسرة كاملة على دراجة بخارية. ثمة عربات الأمن المركزي الضخمة، التي تنقل المساجين أيضاً، بمظهرها المقبض للنفس، الذي يوحي بأنها زنزانات داخل معتقل. تتحرك تلك السيارات بلونها الأزرق الداكن، مترنحة، في شوارع لا تخلو من دراجات وعربات يد ومارة لا يعبأون – مثل سائقي السيارات– بشيء اسمه قواعد السير.

إن الله يحبُّ الجمال. حتماً سنعرف من يكرههم الآن.

في الطابق الثالث من إحدى بنايات الشارع الهادئ نسبياً بهو دافئ. هناك أريكتان على اليسار، أمامهما طاولة تتسع لمشروباتٍ وأطباق المكسرات والتسلية التي تلائم جلسة رائقة، ودردشة تمتد بين صديقتين التقيتا معاً بعد طول غياب، في حين يتسلل هواء منعش عبر الشرفة الموارية.

قالت نيفين وهو توافيني إلى الصالون بفنجانيّ قهوة: اشتقنا لكِ.

أبتسم في ود؛ ثم أتأملها، ببشرتها الخمرية، وطولها الفارع، وشعرها المحمر كلون الشفق.

أرشف من فنجاني رشفة، فأسألها عن نوع البُنّ.

تبتسم، وتروي لي بروحها الساخرة عن بعض مغامراتها الصغيرة للتكيف مع غلاءٍ بدأ يضرب حتى أبناء الطبقة المتوسطة – العليا:

البانسون أمثالي من مُدمني احتساء القهوة الإيطالية صباحـًا في البيت، باتوا أمام مشكلة بعد أن أصبح ثمن رُبع كيلوغرام من بُنّ لافازا يكلف أكثر من خمسين جنيهـًا. أخذت أقنع نفسي بقدرتي على مقاطعة لافازا مثلما تمكنت من مقاطعة الجبنة البارميزان بعد أن تجاوز سعر الكيلو ٢٥٠ جنيهـًا. فكرتُ في أن أتصرف مثل البرجوازيين الذين تدهورت أحوالهم في أفلام لويس بونويل؛ يرتدون ملابس أنيقة وإن تكن ملامح القِدم قد زحفت عليها، ويخرجون وهم يُخفون تحت ملابسهم تحفة كانوا يحتفظون بها، كي يبيعوها سرًا. دخلتُ محل عبدالمعبود وسألت عما إذا كان البُنّ الإسبرسو لديهم جيد، فقالوا لي إن أحدًا لم يشتكِ منه. طحنوا لي ربع كيلو ونظرت إلى لونه الفاتح وهيئته الغبارية وحدست على الفور أنه بُنّ رديء. في المرة الأولى التي جربته فيها اكتشفت أنه خفيف للغاية، لدرجة أن ماكينة تحضير القهوة الإيطالية بدأت تنثر رذاذ قهوة على الجدار. حين احتسيتُ فنجاني الأول شعرتُ بأني أحتسي غبار قهوة في كوب من الماء الساخن. أصابني غثيان، وحِرتُ في أمر من يحتسون هذا المشروب وهم يوهمون أنفسهم بأنه قهوة.

سألتُها: وماذا فعلتِ؟

- أبدًا. كنت أنتوي التخلص من عبوة البُنّ، لكنني تراجعت في اللحظة الأخيرة. المهم كنت في حي الدقي ومررتُ على محل شاهين للبُنّ لتتسرب إلى أنفي رائحة البُنّ المطحون، فقلت لنفسي: "يا سلام هذا هو البُنّ!" دخلت وسألت عن البن الإسبرسو فقالوا لي إن أحدًا لم يشتكِ منه. عدتُ به إلى البيت وحين جربته، تبين لي أن البُنّ ثقيل، لدرجة أن ماكينة القهوة عجزت عن تحضير سوى قطرات من القهوة، هذا بخلاف الصوت المزعج. بدا المذاق ثقيلاً مثل قوام البُنّ. مجددًا فكرتُ في التخلص منه، لكن فجأة ضربتْ رأسي فكرة جهنمية، وهي أن أخلط بُنّ عبدالمعبود الخفيف ببُنّ شاهين الثقيل. فاجأتني النتيجة بنجاح غير متوقع، وخرج البُنُّ من الماكينة بقوام معقول وطعم متوازن. أفكر الآن في تسجيل الاختراع باسمي.. وداعـًا لافازا.

غرقنا في الضحك، حتى اهتزت "ما شاء الله" ذهبية معلقة عند نحرها.

توالت حكاياتٌ مشابهة.

تمتدح ما وصلتُ إليه كطبيبة اختصاصية في الأورام، ثم تردف ساخرة: ابنتي الكبرى، أسماء، تضْربُ الجَرَس إذا جاءتْ حصّةُ المَوْت: الكيمياء.

نستأنف وصلة الضحك.

يقطع حديثنا جرس الباب. سألتُها إن كانت تنتظر أحدًا، فأجابت: فقط أخي هشام. علم بأمر زيارتك، فأراد أن يسلم عليك سريعـًا.

كان للأمر وقع الصدمة عليّ.

كان من السهل عليَّ نسيانه وتجاوزه وربما كرهه. كان من الممكن القيام بأمورٍ عدة لأتخلص منه في داخلي، لكني لم أفعل. لم أستطع، والمؤكد أنني لم أكن أريد.

ارتبكت.

يتقدم نحوي مبتسمـــاً، بجبهته الكبيرة المربعة والمسطحة، وأنفه المستقيم القصير.

مد يده ليصافحني وهو ينظر في عينيّ، وأنا أحاول تفاديه. إلا أن كل شيء تغير حين بدأتُ أنظر إليه. اختفى البريق الأول من العيون. تلاشت الدهشة واللهفة. بهتت الابتسامة وتبخر سحر الكلمات. لم يبق لنا إلا بقايا علاقة تؤرقنا كلما شعرنا بالحنين إليها!

حين يغتالك الحنين، احتضن نفسك، وأغمض عينيك وابتسم، فأنت لم تُخلق لتحزن. فقط تذكر؛ أنت فعليـــاً لا تستطيع إصلاح قلب معطوب، مجروح بالأسئلة.

ارتختْ وسادة الأريكة تحته حين جلس قبالتي.

تغدو الغرفة مثلثـــاً وأنا محشورة في زاويته.

تبادلنا السؤال عن الأحوال والأخبار، فقال بهدوء:

بخير. مرت بي تجارب مؤلمة وأخرى مفرحة. سيكون من الجحود أن أنكر فضل هؤلاء الذين حاولوا بدأب اختراق عزلتي، لقد وفروا لي ما كنت عاجزًا دومـــاً عن صنعه: الطريق. لقد استوعبتُ الحياة دائمـــاً كلحظات منفصلة وسريعة؛ لحظات خاطفة، لا تعود. وعليه، فشلتُ عادةً في إحكام أي سياق، ورسم معالم الدرب الذي أريد السير فيه، هكذا تولى أصدقاء مخلصون مساعديّ في رسم ملامح الطريق واستكشاف علاماته المميزة.

البعض يُعلّم الآخرين أشياء ترسخ في الذاكرة؛ ثم ينساها.

علمتُ منه أنه الآن أبٌ لولدين وابنة، هي الصغرى، أسماها سارة.

سارة؟

يا إلهي!

هو إذن ما زال يحبّني.

غير أن هذا لا يغير من الواقع شيئًا.

صارت الحواجز بيننا من دم ولحم.

نظراتي كانت تقول له بوضوح: اسمك الذي كنتُ أردده في ظلام غرفتي، قفز من النافذة المفتوحة وسقط على أسفلت النسيان.

كان حديثه العام أكثر قتامة مما توقعت:

"لا تسألي أحدًا هنا عن أحواله، فلا أحد يعرف شيئـًا على وجه التحديد. يسمع السائر منا صليل سلاسل تكبل يديه وتقيد كعبيه وتطوق عنقه؛ يسمعها وهو يذرع غرفته جيئة وذهابـًا بلا معنى، ويسمعها وهو في طريقه إلى العمل، ويسمعها وهو يتوسل إلى النوم كي يأتيه. الحُريّةُ هي أبغضُ الحلالِ هذه الأيام"

يردف ساخرًا "نكثرُ من المواد الحرّيفة في طعامنا، علّ هذه التوابل تغيّر طعم الفقد في أيامنا"

تتدخل نيفين لتلطيف الأجواء، وتغيير مسار الحديث. تحدثنا بالطريقة المصرية عن "آخر نكتة"

عندما خرجت النكتة أنقذتنا جميعـًا من اللحظة المحرجة.

جلس هشام معي نحو نصف ساعة أو يزيد، ثم انصرف، وقبل أن يغادر كرر كلماته الأولى في اللقاء المفاجئ: حمدًا لله على السلامة.

أزحتُ عن كاهلي عبئـًا ثقيلاً. الآن، أستطيع أن أنسى تلك العلاقة التي هزت كياني طويلاً. لم يكن سوى عاطفة صنعتها مودة كان لها عمرها

الافتراضي. الآن أعرف أنها كانت عاطفة أو عاصفة شاءت الأقدار أن تهدأ عند لحظة. ومع أن المعرفة لا تحمي من الألم، فقد كان إدراكي لحقيقة تلك المشاعر باعثـًا على الارتياح بالنسبة لي.

مرتاحة؛ لأنني نجحتُ بدرجة أو أخرى، في تفادي أكثر أزمنة الألم خطرًا، والخروج من حالتي الأكثر هشاشة. هكذا كتبتُ بممحاة الريح سيرة الزوال.

في اليوم التالي، تعكر الصباح الغض ببذاءات سائقين متناحرين، في الشارع.

لكل يومٍ هنا قلقه الجديد ووجهه الغامض الذي يشبه كدمة لا تتذكر سببها.

تركتُ نفسي لخيالات الموت والعزاء وأنا أطالع صفحات الوفيات في صحف يومية. قليلاً ما تجد صورة ميت مقبل على الحياة؛ معظمهم يبدو عليه الوقار. نزل عليهم وقار الموت وكأن الصور التقطت في الاستوديو نفسه، وكتبت إلى جانبهم عبارات افتتاحية للعظة مثل "إنا لله وإنا إليه راجعون" أو "مع المسيح ذاك أفضل جدًا" طريقة الكتابة والصيغ البلاغية للرثاء تختلف بالطبع من عصر لعصر، لكنها لا تخلو من النمطية، كما لو أن هناك صيغةً ما اسمُها النعي الكلاسيكي.

أقلب في صفحات الصحف، فأقرأ عن مظاهرات الإخوان المسلمين، والعنف في الجامعات، والإرهاب في سيناء، ومساعي الصلح بين قبائل الدابودية والهلايلة في أسوان، وتفكيك الشرطة قنابل يدوية حول مدارس ومصالح حكومية، وتأييد حبس ناشطين لاتهامهم بخرق قانون التظاهر، وتأرجح مؤشر البورصة صعودًا وهبوطـًا، واعتصام عمال مصانع قطاع عام للمطالبة

بالحد الأدنى للأجور، وإعلان رئيس الوزراء إبراهيم محلب التزام حكومته الحياد في انتخابات الرئاسة، كما لو أننا في خضم معركة انتخابية حقيقية.

البطل الخارق يخرج في بلادنا من صفحات المجلات الهزلية إلى قصر الرئاسة مباشرة!

على استحياء، تتحدث الصحف عن المعركة المشتعلة بين مؤيدي استيراد واستخدام الفحم كمصدر للطاقة ومعارضيهم، التي انتهت بموافقة الحكومة على هذه الخطوة.

ستُحمّلنا الأجيال القادمة تبعات هذه الكارثة الأخلاقية؛ لأننا نعلم ما نحن مقدمون عليه ونقرّه فقط في ضوء توافقات بين ممثلي الدولة وعدد من رجال الأعمال الذين ينظرون للمسألة من الناحية الربحية فقط.

يجب أن نجيب على أنفسنا: الإنسان أولاً أم المال؟

حتى نهر النيل لم يعد يُرطب إلا أنظار المحظوظين في القاهرة، ممن يسكنون أبراجـًا عالية تطل على مشهد تدفق مياهٍ أثقلها التلوث وجثث الأحلام القديمة. لا يكف النهر عن النواح، وهو يجري، أو لعله يفر هاربـًا من قاتليه.

بوسعك أن تقتنص لحظاتٍ إضافية على كورنيش متهالك أو في مطاعم بأسعار سياحية تستغلك أكثر مما تقدم لك خدمة جيدة، لكنك لن تتمكن بأي حال من لمس جسد النهر، رمز النماء والخصوبة، ولا مناجاة الملائكة السابحة في الماء.

لا شيء يتغير في بعض الأماكن.

الجالسون على المقاهي ينفثون همومهم في الأراجيل المتراصة، والمتحلقون حول عربات الفول في انتظار ما يخرج من تلك القدور المعدنية العملاقة كي

يقيم أوَدَهم، والعابرون وهم يكلمون أنفسهم أو يتحدثون في هواتفهم المحمولة عن همومهم اليومية ومشكلاتهم التي لا تنتهي.

على ناصية شوارع مكفهرة، يقف شبان طحنتهم البطالة والفراغ والعوز، وربما شوهت أفكارهم تصورات وآراء متطرفة من وعاظ ممولين بروائح مشبوهة. تباغت الحماقةُ الأذكياء، تمامـًا كما ينقض ذئبٌ على جسد فتاة في سن البراءة.

العلاقة بين المقاهي والهزائم الشخصية والسياسية، تاريخية. على مقاعد تلك المقاهي احتسى الزبائن الشاي والقهوة ودخنوا أحزانهم السرمدية. تقرقر في الفضاء أراجيل الشيشة، ولا يتوقف هديرها إلا حين يودع نافخوها طاولاتهم التي خدشها الإهمال.

ما من قش لكل هؤلاء الغرقى؛ ما من عصيّ لكل هؤلاء العميان.

مدارسنا بمختلف مراحلها تحتاج معجزة حقيقية حتى تتحول إلى أماكن لائقة بتلقي العلم والمعرفة، فألوان الجدران الكابية، والرطوبة التي تنخر في الأسقف، والأبواب القديمة، والزجاج المكسور، ولمبات النيون المعطلة، والسبورة التي هي عبارة عن مجرد طلاء أسود له إطار خشبي، ظواهر متكررة في معظم المدارس التي مررت بها. تلك المدارس تبعث برسالة غاية في القبح والإيلام في الوقت نفسه.

المستشفيات هنا تعاني تدهورًا شديدًا، كأنها لا تعرف معنى كلمة تطور.

كل شيء على حاله، منذ زيارتي الأخيرة لتلك المستشفيات قبل أكثر من عقد من الزمان. ربما كانت الملاحظة الوحيدة التي لفتت نظري هي أن القطط التي تتجول بين أسرِة المرضى وأحيانـًا تقفز فوقها قد صارت أكبر من المعتاد، تتعثر في المرضى والزائرين دون قصد كلما غدت أو راحت.

يُحدثني زميلي الطبيب كامل أبو سيف قائلاً: خلال انتدابي قبل سنوات طويلة لمعاينة عدد من المرضى ومعالجتهم، شاهدتُ بنفسي مرضى أجروا عمليات في مستشفى جامعي شهير في قلب الصعيد وتم إخراجهم إلى الممرات؛ لأنه لا توجد غرف كافية. في هذا المستشفى وجدتُ أواني "محشي الكرنب" وصواني "البشاميل" وكل الأطعمة الدسمة الممنوعة على الأصحاء قبل المرضى تدخل وتخرج على هؤلاء الراقدين على سرير المرض. الزيارات مفتوحة طوال الوقت والهرج والمرج عنوان المكان. في أكثر من مرة دخل رجال مسلحون وأطلقوا النيران، إما لأنهم يريدون الطبيب أن يعالج قريبهم أولاً، أو احتجاجـًا على وفاة قريب لهم، لم تُسعفه منظمة مصر الصحية.

كم أنت فقيرٌ يا ماركيز! كم أنت ضحلٌ يا كافكا!

شبكة الفساد نشيطة وتطبق في المستشفيات والمراكز الصحية بصرامة.

في المعمل يطلب بلا مواربة رسومـًا أو "حق الشاي" له على كل تحليل للحوامل؛ لأنهن الحالات الأكثر استعدادًا للدفع. الموظفة المسؤولة عن شهادات الميلاد لها "الشاي" الخاص بها أيضـًا، أما موظفو أمن المستشفى فكلهم يأخذون أموالاً مقابل السماح بدخول مرافقي المرضى في غير وقت الزيارات، مما يجعل المكان في حالة فوضى شبه دائمة.

الفوضى منتشرة، لكن نظام الفساد يثبت كفاءته على مر العهود.

رسومات الغرافيتي تملأ الميادين وبعض الشوارع.

استوقفتني إحداها. كانت لشاب عشريني يرفع يده بعلامة النصر إلى جانب جدار من القيشاني الأبيض كُتِبتْ عليه ثماني كلمات: "في الشجاعة يكمن الأمل، عش حُرًا تمت حُرًا"

كثيرون ماتوا أحرارًا، لكن مصر ما زالت تبحث عن حريتها.

قامت ثورة ٢٥ يناير، ثم أقعدوها. هبّ المصريون في موجة ثورية ثانية في ٣٠ يونيو، لكن هناك من سرقها مجددًا، وخطط ودَبَّرَ لعودة أصحاب الوجوه القبيحة.

رفاق الماضي اختلفوا وانقسموا. هناك من سَمَّمَ البئر، والضحايا هم أولئك الذين وعدناهم بحياة أفضل!

تفاصيل حزينة كثيرة، لا تُغير حقيقة أن مرآة الحقيقة الناصعة التي كانوا يحملونها جميعًا انكسرت، وأخذ كل منهم جزءًا منها.

بدتْ المدينة مثل بيتٍ متهالك لا يمكن ترميمه من دون إجلاء السكان وإخلاء المكان.

في بلادنا، وحده الحزن ليست له مواعيد رسمية.

في ليلتي الأخيرة في القاهرة أتلقى دعوة من أصدقاء على العشاء وفقرات لألعاب بهلوانية وغناء وبعض الرقصات الإيقاعية. عروض كثيرة بائسة باهتة، جمعت أصواتًا وحركات لا طعم لها ولا رونق فيها، ولا حتى قدر من الحِرَفية والتَمَكُّنِ يسمح للحضور بإبداء الإعجاب أو التعاطف. قبل أن ينتصف الليل، ظهر أخيرًا شاب أسمر؛ طويل القامةِ وشعرِ الرأس، نحيل العود، في لباس مزركش؛ هو راقص التنورة، الذي بدا قادمًا ليمحو ساعات متواصلة من الملل والضيق. غاب عنه المساعدون الذين يؤازرونه في العادة بأردية بيضاء، ولم ير الجمهور المُتَخَشِّب على المقاعد بقية أعضاء الفرقة المُتَوَقِّعِين، لكن الموسيقى انطلقت على أي حال وبدأ الشاب في الدوران، لتدور معه الرؤوس في إعجاب بهذه الحالة الصوفية الروحانية.

لا أذكر من حوارات السهرة سوى تعليق لصديق صحفي، قال فيه بأسى وكَمَد: جف النهر.. أو كاد. أمام حملة الأقلام الآن أحد خيارين؛ إما الكتابة

الآمنة عن أمور بهتت لكثرة الحديث عنها، وهي كتابة ترشحك للمناصب والمكاسب والأنواط والأوسمة.. أو الصمت!

قلتُ له إن الكتابة التي تكشف الفساد وتقاوم الانحطاط هي في حد ذاتها سلاحٌ للتغيير.

رد هازئـًا: لا شيء يتغير هنا. حتى تغيير الحكومات مجرد حيلة شكلية لامتصاص الغضب الشعبي، وإشعال النار تحت وعاء مملوء بالحصى. المصيبة أن هناك من يتوهمون أن النار بعيدة عن ملابسهم، إلى أن تتصاعد رائحة "الشياط"!

صمت قليلاً، قبل أن يضيف: مصر أصبحت "سيتكوم" العالم!

قالها.. ثم غرق باقي السهرة في مقعده متفرجـًا.

شخصيـًا، عرفتُ ما يكفي لصمتٍ طويل.

أشعر بأننا عدنا إلى الوراء، وتوقفنا عند مرحلة تشبه ما بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ أيامها انشغلنا برتق الثوب وترميم الخراب، ولم يكن ذلك سهلاً في ظل مشهد عبثي وأوضاع سياسية واقتصادية مرتبكة. أليس هذا مماثلاً لما نعيشه هذه الأيام؟!

الادعاء بتحقيق أهداف عظيمة "تغير وجه الحياة في مصر" لن يقود سوى إلى كوارث وخيبات أمل متتالية. ما نريده حقـًا هو أن تُوضع مصر على أول الطريق. ربما كانت مأساتنا هي طموحنا القاتل. اعتقادنا بأن لنا مصيرًا خاصـًا. آمالنا أكبر من واقعنا. ثيابنا أوسع كثيرًا من جسدنا الهزيل. المحصلة هي مرض نفسي معضل؛ جرح نرجسي قاتل ومُمض.

صبيحة يوم السفر، أمر على استوديو تصوير قديم في وسط القاهرة، فأبتسم. هنا أجلسوا بنتـًا صغيرة قبل سنوات طويلة على كرسي من الخشب

الفاخر، وضبطت أمها شعرها ونصحتها برسم ابتسامة على وجهها البريء، قبل أن يلمع وهج خاطف ليجمد تلك اللقطة.

ابتسمت، لأكشف عن فم ناقص الأسنان.

كنتُ قد فَقَدْتُ للتو أسناني في حُروبٍ صغيرةٍ مع ثِمارٍ جافّةٍ، وتَلَذذتُ بخروجِ أضراسٍ من قَلعةِ اللّثَة. أرسَلتُها معَ دَمٍ في رسالةٍ للشّمس، بناء على نصيحة أُمّي.

صورة بالأبيض والأسود مازلت أحملها أينما حللت.

أمام صالة المغادرة، واجهتُ زفة جديدة.

خمسة عمال على الأقل تناوبوا على الإمساك بحقائب سفري في رحلة لا تزيد على مئة متر تفصل بين السيارة وميزان الحقائب. هؤلاء، والخدوش التي شوهت حقائب سفري واحدة بعد الأخرى، وما تحملتُه من نفقات وابتزازات واستعطافات وسخافات، أثاروا ضيقي إلى حد بعيد.

ظلت الصور تتداعى معي، حتى بعد أن غادرت القاهرة المقهورة.

كانت الطائرة المتجهة من القاهرة إلى دبي شبه خاوية، والركاب معظمهم مصريون وقلة منهم من جنسيات أخرى. جلست أتأمل نماذج المصريين المسافرين. في الصف المواجه لي جاء مصري له لكنة ريفية برفقة ابنه المراهق. جلس الولد بجوار الشباك فحذره أبوه من أن هذا ليس مكانه وأن مقعده في المنتصف بين الممر والشباك. ركب الولد رأسه لفترة وقلب الأمر في ذهنه؛ ثم تزحزح ببطء وجلس بالفعل على مقعده في المنتصف.

بعد دقائق جاء صاحب المقعد المجاور للشباك. مصري أيضـًا ضخم مربع الجثة والرأس ولكنته ريفية ثقيلة. نهض الأب الجالس وولده ليفسحا له الطريق كي يمر إلى مقعده، وبدون أي سبب مفهوم راح الرجل يشير بذراعه ويده

للاثنين بتذمر وقلة ذوق واضحة.. وهو سلوك أثار استياء الأب بشدة، فقال له ما معناه إنه حفظ المقعد له ومنع ابنه من الجلوس عليه، فلماذا يتعامل بهذه الغطرسة ويشير بيده بهذه الطريقة المهينة!

سرعان ما تعالت الأصوات وتحول الثلاثة إلى فرجة الطائرة كلها، وجاء طاقم الضيافة لإنهاء الخلاف واصطحبوا الأب وابنه إلى مقاعد أخرى. كما ذكرت كان أكثر من نصف الطائرة خاويـاً وأنا مثلاً كنت أجلس في صف كامل بمفردي.

ضايقني الموقف والزعيق المتبادل بين الثلاثة، حتى عجزت عن النوم رغم تعبي.

في دبي، أعيد اكتشاف إمكاناتنا نحن العرب. المدينة ساحرة ونظيفة وآمنة. طُرُقاتها ومبانيها ومحالها ومطاعمها، خارجة للتو من كتاب عنوانه المستقبل. ربما يراها البعض مثل لعبة "الميكانو"، وأن البعض فيها يظن أن الحضارة بضعة سنتيمترات زيادة في برج شاهق الارتفاع، لكنها تظل عنوانـاً للإبهار في أكثر من تفصيلة.

الحقيقة المُرة، هي أنه لا توجد معجزة في دبي، بل المعجزة هي أن لا يحدث مثل ذلك في كل مدن الخليج رغم كل هذه الثروات الهائلة.

أتساءل: مع انتشار ثقافة ناطحات السحاب، هل كان يمكن أن تكون هناك دبي لو لم تكن هناك مصاعد؟

أحاول أن أتصور حياة مستأجرين ومُلاك يعيشون بدون مصاعد كهربائية في الطوابق من السادس إلى الثمانين في بناية أكثر من نصفها يعانق السحاب.

أدلل نفسي في هذه المدينة المدهشة.

أتنزه في ممشى المارينا، وأحتسي القهوة في منطقة غريتز، وأتسوق في "دبي مول" و"ابن بطوطة" و"مول الإمارات"، وألتقط صورًا تذكارية عند برج خليفة أو برج دبي، الذي يعانق السحاب، وأتناول طعامي في منطقة "جي بي آر"، وأنا أتابع بعينيّ ضحكةً بين عاشقين، تمنح الأرض سلامها يهبُّ اللطفُ وهما يغادران بأيدٍ متشابكة.

في الغرام، يشبُّ العالم على أطراف أصابعه، كي يطل على عاشقين من شرفة الحياة.

أستقل الطائرة عائدة إلى أسرتي الصغيرة على الضفة الأخرى من الأطلسي.

رحلة طويلة ومرهقة، رغم الخدمة الراقية في الطائرة.

في الليلة الأولى لدى عودتي من تلك الرحلة، كان في جسمي خيالُ النوم. وضعتُ مخدتي فوق أذني اليمنى الحساسة حتى لا تزعجني أي أصوات، وبحثتُ عن أحلام تشدني إلى نوم غير متقطع.

تطلب الأمر يومين أو ثلاثة، كي أجد نفسي وقد نمتُ نومـًا لم أنم مثله من زمن طويل. نوم سلس رقراق كماء النهر عند الجنادل. نوم ناعم كالحرير. استيقظتُ صباح اليوم التالي وعلى وجهي ابتسامة. شعرتُ بالرضى عن نفسي، والابتهاج بيوم لم يكد يبدأ.

في اليوم التالي لعودتي، كان رماد الفجر يزحف نحو شارعنا، حين استيقظت. يتحسن "الجت لاج" تدريجيـًا. أحاول تذكر أحلامي فلا أذكر أغلبها.. التفاصيل لا تهم كثيرًا. الحمد لله مرتاحة. أكتبُ وأقرأ قليلاً. أطعم القطط وأقضي بعض الوقت معهم قبل دوامة العيادات وباقي الالتزامات المعتادة. اللهم أدمها من نعمة واحفظها من الزوال.

أدهشني سمير حين علق عليَّ وأنا أقف أمام المرآة لضبط هندامي. يبدو أنه لاحظ عدم رضاي عن بثور ظهرت البارحة في وجهي والهالات السوداء تحت عينيّ، فقال لي بصوته الهادئ: بعض المرايا تكذب، فقط بدافع الغيرة.

ابتسمتُ قائلة: صرنا شعراء!

رد بالقول: هناك قصائد دائمـًا. القلب ينظمها والعين تقولها.

يقترب مني بقدمَين واثقتين كأنه ملكٌ في عباءة درويش. يحتضنني، فأستكين مثل قطة أليفة. عنقي الذي يتحرق شوقـًا إلى قبلاته، حقولٌ عارمة من الدفء تنتظر تسلله إليها ببطء.

يقول لي: ابتسامتكِ وحدها تنقذ العالم.

عيناي تقولان له: هناك الكثير مما خبأتُه لك تحت قميص رغبتي، ومما ادّخرتَ لي من تعرّقٍ في كفّيكَ.

استرحنا في غابات الجسد.. وضِعنا!

يمر بأصابعه على خطوط جسمي بخفةٍ وحنان، كأنه يرسم ملامحي من جديد. تفيض الأصابع مثل رحمةٍ ساحرة.

تمشي أصابعه بين الوردة ورائحتها؛ بين العشب واستسلامه؛ بين الرغبة والنداء الصامت، فيموت الكلام!

نشتبكُ بألفةٍ، فلا يعود للهواء مكانٌ بين جسدينا.

يتسلل إلى جسدي في نعومةٍ وابتهال، فيمنحني مدّي وجزري، ويحبس أنفاسي برغبته. أحِبُّ هذا الجحيم!

بدأنا نشيخ. الحنان بيننا بدأ يأخذ نغمة مؤلمة، لكنها تبدو أرق وأنضج من ذي قبل.

ربما كنتُ في نهاية المطاف مخطئة أو مبالغة في تصوير أزمة علاقتي معه. إنه إنسانٌ حنون. ربما لا يجيد التعبير عن مكنون صدره، لكنني أطمئن إلى وجوده معي وحولي.

وحده الذي نتكئ عليه فنطمئن إلى كياننا وجمالنا الخفيّ، يستحق أن يكون عكاز أيامنا.

سمير هو ذلك الرجل الذي يتفقد الستائر؛ يهتم بكمية الضوء المتسربة من النافذة، حتى يعتني بحلمي وأنا نائمة!

في المساء، أكتب على فيسبوك بأسلوب التورية انطباعاتي عن رحلتي إلى مصر ومشاهداتي هناك:

"في عصر الفحم، اندلعتْ حرب البسوس، وظهرت طبعات جديدة من داحس والغبراء، وغطى وجه النهر دمٌ حرام، وتكلم الكاهن الأكبر للقبيلة عن الحاكم الضرورة، وصفق المنافقون والمدلسون وأصحاب المصالح لصاحب الخيمة الكبرى، وانتشرت جوقة المداحين والمبررين، وزعق تجار العنف باسم الدين مثل نار لديها مزيد، وأصيب الفقراء والمعدمون والضحايا المنتظرون لكوارث الغد بغصةٍ كلما تحدث أحد مصاصي الدماء عن العدل الاجتماعي.

هكذا ينضب الماء، ونغرق جميعـًا في الظلام"

التعليقات؟

لم أعد مهتمة بالرد والغرق في تفاصيل مؤلمة تشرح ما كتبت.. وشاهدت.

(١٦)

هذه المرة، أنا أكثر حذرًا في الدخول في علاقة جديدة.

هناك أشياء أكثر سوءًا من أن تكون وحيدًا. ربما أشبه في نيويورك طائرة شراعية تحلق على ارتفاع، لكنها بلا ربان. تقصد ممرات وتبحث عن مدرج هبوط في مطار ما. لا بأس، سأجد ذلك لاحقـًا.

أعرف من يتودَّدون لي داخل المحطة الإذاعية، ومن دائرة المعارف التي بدأت في تكوينها تدريجيـًا. يغازلني شاكر، مهاجر عراقي، ينتمي إلى قراصنة الشهوات المبحرة. وسيم الطلعة، لكنه لحوح. تتقد عيناه، مثل خشبٍ في هَبّةِ حريق. حين يضحك تكتشف أن له أسنان منشار.

يمتدحني قائلاً بلهجته العراقية التي تشبه الموال: الكحل يتجمل بالعيون الجميلة. الجمال يستحق الدلال. أنتِ كالكستناء، خلف صلابتكِ مذاقٌ طري لا يُنسى.

يتحدث مثل صياد يُرَاود السمكَ حتى لا يهربَ منْ صِنَّارَته، لكنني لستُ سَمَكةً ليصطادَهَا عَابرٌ.

أرمقه بحدة، ثم أقول له: شاكر!

لم يكن يدري كم أطلقتُ خيول الحرير في فساتيني، وكم كنتُ الأميرة الضائعة في أحضان الحُبّ!

لقد عشتُ – بما يكفي– حياةً مخادعةً تضحك من وراء كتفي.

تدلى لسانه كالدودة وهو يطلب مني أكثر من مرة أن نخرج معـًا، لكنني اعتذرتُ له وأخذت أسوق في كل مرة ذريعة جديدة. لا يكفُ الثعلب عن طلب عناقيد العنب، بشتى الحيل. كي أهزمه، أقنع نفسي بأن الكلمات التي يقولها والتي تبدو كأنها تخصني وحدي، لا بدَّ أنه يقولها لجميع الفتيات.

يبدو أكثر إصرارًا على الاقتراب من عالمي. يدفعني سلوكه إلى التماهي مع الدور، كي أصل إلى ما يضمره، وهو ما أعرفه مسبقـًا. حين يفاتحني بأمر اهتمامه بي، أصارحه بالقول بأن قلبي في إجازة هذه الأيام.

لم أكن بحاجةٍ إلى تذكير نفسي بأن بعض علاقات الوافدين الجدد تشبه الورطة. نقع، ونغوص فيها يومـًا بعد آخر، ونحن نتساءل: متى ندرك القاع؟ كم جرعة من الخُذلان نحتاج كي نفيق؟

لن أمنح دفئي لقلبٍ وغدٍ بعد الآن.

فعلتُها كثيرًا.

كنتُ أمارس الصدود بودٍ مرة وبجفاء مرات. أرفضهم، لمجرد أنني أريد ذلك بلا مبرر، مثل ولد طائش.

اكتسبتُ هذه العادة من كل شخص خذلني وتركني في دموعي كجرح لئيء.

ربما كان مروان أقرب الزملاء إلى نفسي. مهاجر سوري، ذو جبهة بارزة وعينين منتفختين مثل حبتيّ فاصولياء، يعشق الشام ويكاد قلبه ينفطر حزنـًا على وطنه. يمتزج حزنه بقليل من السخرية. يقول لي ونحن ندخن السجائر عند مدخل المبنى. "زمان، كان هناك مشروع تشجير وتحويل سوريا إلى غابة خضراء..الحقيقة حوَّلوها إلى غابة، لكنها غابة سوداء".

أواسيه قائلة: لا سامح الله القتلة والمستبدين. تذكر دائمـًا أن الرصاص لا يُنجبُ شجرة، بل يتامى.

حدثني عن ذلك الصاروخ الفراغي الذي تسبب في تمزيق أجساد شقيقته سهى واثنين من أطفالها في بنش. فكرتُ لاحقـًا لو أن لي طفلاً سقط مثل سهى جراء صاروخ فراغي ، ما عساني سأفعل!

أحاول أن أتجاهل هذه الفرضية.. أن أبعدها عن مخيلتي، لكنها تأبى إلا أن ترجع كلما رأيتُ صورة لطفلة أو لطفل تمزق جسده.. أو كلما قرأتُ عما حصل.. في حلب ودمشق ودرعا.

الفكرة– الافتراض تسيطر عليّ وتأبى أن تذهب. جسدي يمتلأ بالحقد كله، حقد الأرض كله.. لن يكفيني شيء لو كان طفلي هناك، لن يكفيني أن يصبح كل النظام وأفراده أشلاء، لن يكفيني أن تموت وتُحرق كل العائلة الحاكمة، لن يكفيني موت كل المؤيدين، لن يكفيني العالم.. بريق عينيّ طفلتي، شغب ابني لو ذهب، لن يعوضه كل أطفال العالم.

أتنهدُ، ثم أستدركُ قائلة لنفسي: لكنني بلا أطفال!

يعيدني إلى الواقع، صوت مروان وهو يقول "لا أملكُ للموت دفعـًا؛ ولكني أخاف أن يفاجئني غريبـًا"

يدندن فجأة بأغنيةٍ غامضة: "لا أملك شيئـًا.. فيملكني"

كنتُ أطيل الإنصات إليه وهو يعرض فكرته في تأنٍ وروية، ويُبدي قدرة على التحمل؛ إذ كان يمتلك طاقة هائلة على كظم غيظه وضبط أعصابه، والصبر على المكاره، وكانت تروق لي إحاطته وثقافته.

أغرب ما فيه شخصيته التي تشع تواضعـًا وأدبـًا وانكسارًا لا أدري له سببـًا، ثم تتفاقم انفعالاته أمام الميكروفون ليتحول إلى شخص آخر مسيطر

ومعتز بنفسه ومدرك لمقدار موهبته. يُحوِّل شحنة الانفعال إلى أسلوب فعالٍ في الإقناع. إنه يطالب المستمع بأن ينصت إليه، ويجذب آذان جمهوره بنبرة صوتٍ خافتة، مقنعة.

الأصدقاء أبواب.. لا جدوى من أبوابٍ مصمتة تغطيها الأقفال!

سهام، جزائرية من عنابة، تبدو لطيفة المعشر. بياضها باهتٌ مثل عظم السمك، ووجنتاها هشتان كورق سيجارة. بائسة مثل جسدٍ يعاني فقرًا في كريات الحُبِّ، وحزينة كأي فتاة تكوي في المساء حظّها المجعد. عندما تفكر في شيء، تُدير عينيها مثل دُمية. تحاول تحصين هشاشتها بالوجوم، وكلما باغتتها ضحكةٌ دفعتها بيديها الاثنتين نحو الهاوية.

فتاة عادية. مع ذلك، فالفتيات العاديات، من لا يبدو عليهن إلا الرقة، هن من يؤثرن عادةً في العالم.

وحدها هذه الرقيقة تحاول مساعديّ في التأقلم مع مكان العمل الجديد. تحكي وتشرح لي كل شيء أحتاج إلى فهمه كوافدةٍ جديدة، لولا أنها حين تتحدث بلهجتها الجزائرية وصوتها المبحوح تجعلني بحاجة إلى ترجمة.

ليان، اللبنانية، الجمالُ في صفها، رغم أنه بدأ يتآكل مع السنين. جسدها يرمي ظلاله الذّكية، لكن البقع البُنيّة في يدها وتجاعيد رقبتها تقولان كل شيء. ولّتْ شمسُ أنوثتها، لكنها تترك أشياء كثيرة تُفلِتُ منها، كما لو أن لديها ولعـًا مؤرقـًا بالإغواء. ترتدي فساتين قصيرة، لا تنسى بين الحين والآخر أن تشدها لكي تصل إلى ركبتيها اللتين ألاحظ بروزهما إلى الأمام.

بعض الجميلات يُضفن للحياة المرارة والألم. هذا هو دورهن فقط في الحياة.

هي من مؤسسي المحطة الإذاعية. تمتلك صوتـًا رخيمـًا رغم محدودية نغماته ورتابتها أحيانـًا. تتقن عملها، لكنني لاحظتُ أن الخُيَلاء ينفخها

كالسمّ. تتعامل مع بعض مرؤوسيها أحيانـًا كما أنهم جرذ اكتشفته تحت الفراش.

الأمل يبقى مجرد سرابٍ مراوغ، إن لم نحاول اقتناصه ليصبح واقعنا الجديد.

بدوتُ مرتاحة في مسكني الجديد. تفقدتُ شققـًا مختلفة، لكن بعضها بدا لي بعيدًا عن محطة المترو، وبعضها الآخر ضيق لدرجة قد تصيبني بالاختناق. كانت هناك شقة بإيجار مناسب وقريبة من المترو، لكنها تطل على فناء مُترب ورائحة مدخلها تشبه ملابسنا الداخلية في يوليو.

استقر بي الأمر في استوديو صغير، لكنه جميل. غرفة نومي تطل على حديقة أخاذة، تصدح فيها الطيور بخلاعة، وتشقشق كالببغاوات القرنفلية. لا يمكن وصف الشذا المتخلل بالهواء. أستنشقه عميقـًا فيتغلغل العبير في كياني كله. العميان وحدهم يُعجزهم عشقُ الجمال الهادئ.

عند الشروق، يرهق الشبان أنفسهم راكضين لممارسة رياضتهم الصباحية. ينتشرون مثل مروحةٍ فوق الممرات التي يحيط بها العشب والأشجار السامقة، قبل أن يرتموا مقوّسين رُكبهم وهم يسندون خصورهم بأذرعهم، لفرط الإرهاق،

طلبتُ من صاحب المسكن تغيير مقابض الأبواب المشوهة وحوض الاستحمام، وإعادة طلاء غرفة النوم، ففعل. أحسستُ براحةٍ كبيرة في المكان.

في المساء بقليل تتدفق الرسائل عبر الهاتف. أتراشق مع أصدقائي وصديقاتي بالحكايات والتعليقات والصور. يحمل بعضنا أكثر من هاتف؛ ثم تدور عيناه في محجريهما وهو يراقب واتس آب وفايبر وبينهما تويتر وفيسبوك. تتداخل متابعة الأخبار المتلاحقة مع أحاديث الأصدقاء الذين تسرقك منهم ساعات اليوم وضجيج اللحظة.

كنتُ أقول إنه اختراعٌ هائل ذاك الذي أصبح يجمعني بمن أحِبُّ في أي لحظة وأي مكان.. تنتقل من حيث أنت إلى عوالم أخرى. هذا الواتس آب جميل حقـًا. لا ينقل الصورة فقط بل والضحكة ونظرة الشوق والمحبة البريئة وكثيرًا من المودة. كل هذا الحُبّ يأتي أيضـًا عبر هذا أو ذاك من أشكال التواصل. كل هذا الجمال أبحث عنه قبل أن أقفز من سريري في الصباح وأعد قهوتي ومعها بعضٌ من أغاني فيروز، بصوتها المعتق في جرار الوقت.

أدمنتُ تويتر. أحببتُ هذه الرسائل التي لا يتجاوز كل منها ١٤٠ نقرة طباعية. إنها تسافر بصمت، وتنتشر من دون ضجيج، وتسري بنعومة، مثل قطة أليفة.

لم يمنعني هذا من استخدام فيسبوك، خاصة أن هناك قضايا وتعليقات تثار هناك بشكل أكثر إسهابـًا، رغم أنك في فيسبوك تحديدًا، لا بدَّ أن تتفادى باستمرار روائح الصرف الصحي للسياسة.

لو أن الحقيقة أو العدالة قائمة على أرض الواقع، لما ثرثرنا بها في الواقع الافتراضي.

أضعُ عادة مسافة كافية بيني وبين أولئك الهائمين في عتمة الفضاء الإلكتروني. ببساطة، لا أعرفهم بدرجةٍ تمنحني الطمأنينة التي أحتاجها لأفتحَ لهم بوابة العقل وخزائن الروح.

لكن، متى كانت الرؤية يقينـًا؟

من يدري، ربما كان من يعيشون حولنا هم الافتراضيون، في حين أن هؤلاء الذين نتواصل معهم هنا هم الواقع بحذافيره. نعم، عددٌ كبير منهم على شبكة الإنترنت من العابرين، تمامـًا كما في الحياة اليومية، لكن بعضهم أيضـًا أكثر قربـًا واتصالاً وربما تواصلاً من أولئك الهائمين في دروب الحياة.

قرأتُ حديثـًا صحفيـًا لرؤوف قال فيه إنه وضع القلم من يده، وهذا يعني أنه كفّ عن نظم الشعر. هل يصدق نفسه؟

الأمر خارجٌ عن إرادتنا أحيانـًا. لا يمكن أن نُنحي الشعر جانبـًا ونفترض نهايته كأنه دبوس شعر مُعوَج.

شعرتُ بالحزن والعجز عندما علمتُ بسقوط ضحية أخرى خلال أداء عملها الصحفي في القاهرة. اسمها ميادة أشرف.

فتاة في مقتبل العمر، تغتالها رصاصة أثناء تغطيتها لمواجهات بين متظاهري الإخوان المسلمين وقوات الأمن.

أكتبُ على فيسبوك:

"سيقفون جميعـًا في طابور المعزين؛ القتلة والجناة.

ستختلط الأوراق، وتغيب الحقائق: المجد للتدليس!

سيقفز إلى صدارة المشهد متسلقون صغار يرتدون أقنعة مزركشة بالخداع والانحطاط يتبعون أساليب ملتوية ومتلونة.

ستكرر تصريحاتٌ ممجوجة يلقيها نفرٌ من أصحاب النفوس الضعيفة والضمائر النائمة والقلوب الميتة.

وستكتفي ميادة برصاصة مميتة، و"هاشتاغ" على تويتر، وعضوية شرفية في نقابة الصحفيين.. بعد فوات الأوان!

لن نعرف على وجه اليقين من قتل ميادة أشرف، وستبقى الرصاصة توأمـًا سياميـًا لرصاص غادر خطف من قبل أرواح الشيخ عماد عفت، والمصور الصحفي الحسيني أبو ضيف، وطالب هندسة القاهرة محمد رضا.

الشيء الوحيد المؤكد هو أن المتاجرين بدماء ميادة ومن سبقوها إلى الموت غدرًا، لن يكفوا عن التباكي، والتذاكي، والحديث بأسلوب فتاة ليل تعطي دروسـًا في العفاف.

رحلت ميادة، وبقي لنا وجه الضحية البريئة، لاعنـًا تجار الدم وباعة الفتن، ووكلائهم البارعين في كتابة التقارير الكيدية وإلقاء التصريحات العنترية، دون أي إحساس بالذنب أو ذرة شعور بالخجل.

اذهبي إلى بارئكِ يا ميادة. احكي له حكايتكِ، فنحن مشغولون عن الإنصات لكِ بالبحث عن إجابةٍ لسؤال مرير: من الضحية التالية؟"

ليتنا نخفف من مرارة الحزن على موتانا، بأن نتخيل الميت على هيئة صغير غارق في نوم عميق.

(١٧)

يومٌ حافل في المحطة الإذاعية الصغيرة.

جاءتني ردود فعل وتعليقات متباينة على موضوع الحلقة السابقة. توقف كثيرون عند ملاحظتي بشأن ربط النساء بأسماء أبنائهن وتجاهل أسمائهن الحقيقية. بدتْ الظاهرة المنتشرة في مناطق مختلفة من المشرق العربي وكأنها نوعٌ من إلغاء هوية المرأة، خاصة إن كان ذلك يجعل اسمها عورة أو شيئـًا مهملاً. قلت: نادوا النساء بأسمائهن، فالمرأة مهما كانت عاشقة لأمومتها، تشتاق إلى اسمها وتجد فيه هوية ودلالاً.

كثيرون أيدوا دعوتي، والبعض رأى أن الأمومة تكفي وتزيد للتدليل على هوية المرأة في المجتمع الشرقي. وما بين هؤلاء وهؤلاء، بدا البون شاسعـًا في التفكير، حتى لدى هؤلاء الذين حملوا معهم إرثهم إلى العالم الجديد.

أتطرق في برنامجي إلى وسائل التواصل الاجتماعي، باعتبارها خيمتنا التي لا تترجل من أعماقنا. نجول الكون وهي حتمـًا ودومـًا معنا. ورغم إدراكنا لذلك فإننا لا نتوقف أن نردد انها وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة ومن لم يكن لديه حساب تويتر أو فيسبوك فهو عمليـًا غير موجود على الخارطة البشرية. هي الأدوات السحرية التي حررتْ الشباب من عبودية فضاءاتهم المحدودة، وجردتهم من قيود العادات والتقاليد وفتحت لهم أبوابـًا للتواصل فيما أوصدت البيوت والنوافذ باسم كل ذلك أو حتى الدين!

المفارقة أننا قد نستخدم تلك الوسائل ليس فقط في التواصل الاجتماعي وإنما في فضح آخرين، عبر نشر وإتاحة صور وتسجيلات تعتبر من المحظورات والمحرمات اجتماعيـاً وأخلاقيـاً في مجتمعاتنا، وقد نتجاوز بهذه الوسائل مفهومها الأساسي، لتصبح منصات لإطلاق الشتائم وتبادل السباب وغير ذلك من أسباب الخصومة والعداء. وسائل التواصل تستغل للتباعد والتشاحن.. يا لها مفارقة!

في المساء، أتلقى اتصالاً هاتفيـاً من رولا

- أخيرًا نطق.

- من؟

- أبو الهول. تصارحنا حول أشياء كثيرة، وباح لي بمشاعره. يبدو أنكِ ستتلقين قريبـاً دعوة لزيارة لندن هذا الصيف لحضور حفل خطوبتي.

ينطقُ صوتها بالفرحة. كم أنا سعيدة لأجلها.. لأجلنا جميعـاً: أنا وهي ومنى، وباقي النساء اللاتي يحلمن بحُبٍّ صادق وعلاقة مستقرة، وأبناء ينطقون بأجمل كلمة: ماما!

انشغلتُ في وقتٍ لاحق بالإعداد للحلقة التالية. قرأتُ مقالة بديعة تحمل عنوان "استبداد التفاهة"، أجد في سطورها صيحة تحذير مما هو آت؛ لأن التراكمات تجعل الأزمة أكثر صعوبة واستفحالاً هناك استكانة لفكرة التفاهة في الحياة اليومية والإعلام والأعمال الفنية والأدبية.. في كل شيء.

الذين قعدتْ بهم الهمة وروّجوا للنكات المستسلمة للرداءة والحكايات والأمثلة الشعبية التي تحض على الخضوع والخنوع.. باتوا للأسف "نخبة" هذه الأيام.

كل هذه الطاقات الهائلة للاعتراض والغضب، والسخرية والتهكم، والابتهاج والاكتئاب.. ومازلنا نتحرك في دوائر مغلقة من العبث.

انطلقتُ من المقالة لإعداد مادة الحلقة، التي جاء فيها:

"في مصر الآن حُمّى تنتشر بلا توقف وتنهش جسد الوطن بضراوة مثلما تفتك بأجساد عليلة تعاني أعراضـًا غريبة، منها الاهتمام بتوافه الأمور وإهمال كل ما هو جاد، للدرجة التي حولت حياة المصريين إلي حلقات لا نهائية من تتفيه الأمور وتسطيحها للهروب من واقع يخضع لأقسى تجارب التشويه.

قد يقول البعض إن ذلك الأمر اعتاده المصريون منذ آلاف السنين، فهم يستقبلون وليدهم بـنكتة ويواسون مريضهم بمثلها بل يودعون فقيدهم أحيانـًا بتذكر قفشاته الضاحكة، فبين المصريين والنكتة تاريخ طويل من مغادرة الواقع والهروب من نكباته ولكن ليس بالصورة التي نراها الآن والتي تقترب من مرحلة سفاسف الأمور.

لم تعد النكتة رمزًا للتعبير، ولا التنكيت قوة رادعة من أجل التغيير. أصبحا نوعـًا من الاستسلام لمرارة الواقع تعكسه هيمنة من لا يرون في مصر الآن إلا رقصات الأرمنية صافيناز، وبرامج فيفي عبده، وروائع السبكي، وعبقرية سما المصري، وحكايات زينة وأحمد عز، وأكاذيب الإعلام وخداع الإعلام المضاد، وتخطيط توفيق عكاشة في مواجهة سيول الخبراء الاستراتيجيين، وثرثرة فيسبوك وحروب تويتر بين ملثمي الكيبورد ومطاريد جبل الإنترنت، ونضال المتحولين علي فضائيات غسيل الذمة السياسية، وزفة زيف وتزوير "التوك شو" وسيطرة الجُهّال بالمال قذر المصدر ومجهول الهوية، وكلها معارك تشبه النكت المصرية القديمة ولكن من غير ابتسامة ولا ضحك؛ لأن من يسمعها يثق أنها تريد الضحك عليه وليس إضحاكه. إنها تُذكّره بما قاله الشاعر أحمد الشهاوي ذات مرة: في المراحل الانتقالية للأمم يعلو السافل ويتبوأ مكانـًا

ليس له، ويصير المعتوه حكيمـاً، والجاهل مستشارًا، والغانية ملهمة للشعراء، وعلي أصحاب العقول أن ينأوا قليلاً، كي لا تفرمهم عجلة الجهل التي لا تدرك ولا ترحم من فرط عتاقتها في الصدأ"

العقل.. أقدم سجين سياسي في بلادنا. تغييبُ العقل وإباحة القمع الفكري الثقافي هما سبب البلاء الذي نرزح تحته حتى يومنا هذا.

فجأة، شعرتُ بوهن شديد، وضيق تنفس. اهتزت الإضاءة الموجودة على سطح مكتبي حتى بدتْ وكأنها تتراقص أمام ناظريّ. أكتشف أن حدقتيّ عينيّ هما اللتان تهتزان، فيما أخذ جفنايّ في التراخي. أطلق استغاثة خافتة ليست لأحد، وأسرع للاتصال برقم "٩١١" طلبـاً للنجدة، وأجاهدُ لذكر عنواني بالتفصيل، قبل أن تصيبني إغماءة، لم أستيقظ بعدها إلا في المستشفى.

ليتني أعود مجهولة كما ولدتني أُمّي.. كم أوَدُّ أن أكون عابرة سبيل في هذه الحياة المقفرة!

أتمنى أحيانـاً أن أعلِنَ أنني لستُ نفس الشخص الذي كان يحتلُ هذا الجسد قبل عدة سنوات..صحيح أنني ورثتُ مآثره، لكنني بريئة مما ارتكب!

لو كان بوسعي أن أضرم النار في ذاتيّ القديمة لما ترددت. ليست هناك حاجة لها هنا. أريد ذاتـاً جديدة أكثر تسامحـاً مع أخطائي، ونزقي الذي يلازمني مثل تميمة.

لم أعد سوى غصن هش لن يحتمل يومـاً ثقل أجنحة العصافير.

تزورني الطبيبة وهي تحمل في يدها ملفي الطبي. كانت بجسدها المنهك، وشعرها المزموم إلى الخلف بتقشف، تبدو كما لو أنها روحٌ معاقبة في مدينة الجن.

•

ألمٌ رهيب.. آه!

تُحدثني سارة بجديةٍ لا تخلو من الود عن حالتي الصحية، وتقول إن الفحص المبدئي أظهر إصابتي بسرطان الرئة، لكنها أردفت قائلة: مازلنا في المرحلة الأولى من الاختبارات. علاج سرطان الرئة يعتمد على نوع الخلية السرطانية، ومدى انتشاره وأداء المريض.

"والعلاج؟"

يخرج صوتي حادًا كأنما يتحرك في فراغ.

تضبط نبرة صوتها لتبدو محايدة، وهي تقول:

هناك أساليب علاج شائعة تتضمّن الرعاية لتخفيف الألم، والجراحة، والعلاج الكيميائي، والعلاج الإشعاعي، وأيضـًا العلاج الدوائي المركز. من المبكر تحديد ذلك. يجب أن نعرف بالضبط في أي مرحلة من مراحل المرض أنتِ. أما مرحلة تقدم السرطان، فيتم تحديدها بواسطة عملية تُسمى تصنيف المراحل (Staging).

تحاول تخفيف وطأة الأمر عليّ قائلة: نملك اسمين متشابهين في المعنى. أنتِ فرح، وأنا سارة.

أجاهد كي أتقاسم معها طيف ابتسامة خرجت من شفتيّ. أرد قائلة:

الفَرحُ عطرٌ، متى لامس القلبَ طار.

تدريجيـًا، أستسلم للأخبار السيئة عن تدهور حالتي، وانتشار الأورام في جسدي. أعرفُ من طبيبتي أنني أعاني سرطان الرئة من الدرجة الرابعة، أي أن السرطان انتشر وتفشى في أعضاء أخرى في الجسم، مثل الكبد، والعظام والدماغ.

صرتُ خبيرة في الفحوصات التي أخضع لها بشكل مرهق. فحوصات الأنسجة واللعاب والتصوير Imaging حددتْ حالتي المرضية، أما فحوصات التصوير بالرنين المغناطيسي MRI، ومسح العظام، والتصوير المقطعي PET فقد أظهرت علاماتٍ مزعجة على تفشي السرطان خارج الرئتين.

السجائر محظورة نهائيـًا بأمر سارة.

تقول لي: السجائر سببٌ رئيسي طبعـًا، لكن الحالة النفسية قد لا تكون بعيدة عن كل ما يجري لجسدك. لكِ أن تعلمي أيضـًا أن الجلوس لمدة خمس ساعات متصلة في مكان العمل، يعادل تدخين علبة سجائر كاملة!

- "أعلمُ"

متأكدةٌ من أن أورامي الحقيقية هي الغضب، والحزن والخيبات المتتالية؛ كل شيء يرقد في جوفي منذ زمن.

لقد امتطيتُ جوادَ حيايَ، حتى زلتْ قدماي وطرحني عنه جُرحٌ مميت.

أخضع للتحليل والأشعات المتلاحقة، وأتحول بكامل رضاي إلى مريضة مثالية، تلتزم بمواعيد الدواء وزيارات الأطباء المعالجين.

ليس سهلاً أن يصبح هدفك منذ الصباح الالتزام بمواعيد تناول الدواء والحقن، وأن تسكب الماء في جوفك مع كل قرص دواء، أملاً في إسكات صراخ الجسد الموجوع.

أشبه خيال مآتة مستلقٍ على سريره، بيدين كما لو كانتا مصلوبتين.

قميصي واسعٌ، يخفي ما تحته من أورام، وفي يدي ضباب.

أنظر إلى نافذة الغرفة، كما لو أني في انتظار طائر غريب.

يومـًا ما، لن يكترثَ المُنبِّهُ لموتي.

سيواصِلُ رنينَهُ الصّباحيَّ، فاضحـًا جُثّتي.. سيواصِلُ الرّنينَ بلا خجلٍ من تيبُّسي على طرفِ السّرير.

يحدث أن نصحو صامتين وواجمين، إلى أن تُدركَ أعضاؤنا أنّها ما زالت تعملُ، ولم تُعطّل الميتةُ الصغرى واحدًا منها عن مواصلة الحياة.

أسدانِي المرض فرصةً واسعة لتأهيل جسدي للحياة.

أكتبُ على كل علب أدويتي "أزمة عابرة"، كي لا أستسلم يومـًا لغول المرض.

عليّ أن أجتاز هذا الجسر الأخير، وأن أتشبث بالأمل والوعود التي ليست صادقة بالضرورة. ذاكرتي تنفتحُ وتنغلِق كبابٍ في مهبِّ الرّيح.

نمتح منْ آبارِنا بلا رافِعَة، فَتغرق صُورنا ويصعَد دَلوٌ فارِغٌ إلا من ذكرياتٍ تَتَنَكّر قَطراتُه للألم.

أحزانٌ عتيقةٌ، عاشتْ من وراء ظهري، وتلصصتْ على سنوات عُمري، وضربت بجذورها في أعماق نفسي ولم أكُن أدري. لقيتُها على نواصي الأيام، بالمصادفة البحتة، في فترةٍ خصصها القدر لمرضي الأخير.

أقول لطبيبتي: سآخذ سري معي. إنه متاعي الصغير.

تسألني سارة:

- ألم تتزوجي بعد؟

- لم أكن لعوبـًا بما يكفي ليختنق رجلٌ بخاتم ذهبي يحمل اسمي، ولا عروسـًا ليزّ منه عرق المسؤولية.

- الأمر ليس بمثل هذا السوء. في مكان ما من هذا الكون هناك من يحبُّكِ ويحلم بالارتباط بكِ، حتى وإن لم تعرفي ذلك بعد. معادلة الغرام والزواج سُنة كونية.

- الزواج أعلى درجات الأمل في بلاد اللا طموح. إنه الخلاص المثالي لأية امرأة مداركها العقلية ضيقة، مصابة بقصر النظر ولا تجيد تأمين مستقبلها. على أي حال، لا يتم اختيار زوج مناسب، بل اكتشافه. هناك واحدٌ بين كل ألف رجل يصلح للزواج. الحُبُّ أو الزواج هو السراب الكبير في حياتنا. لنتجنب الوحدة، نضطر لاختيار أسوأ الاحتمالات؛ أن نكون مع أي شخص. الفتيات عادة يقمن بذلك، وتنتهي القصة ببضعة أطفال، يصرخون: "ماما" لامرأة حزينة.

- معكِ حق. انظري إلى رشدي أباظة وسعاد حسني؛ هو مثال الرجولة المكتملة كما تعشقها المراة أو كما يقول الكتاب، وهي تجسيد للجمال والرقة والأنوثة. كلاهما تزوجا خمس مرات، لكنهما بقيا في النهاية بدون حُبٍّ حقيقي، رغم القبول الشكلي لدى كل منهما. بعض الأرواح تشقى حتى وإن ارتوت الأجساد.

تصمت قليلاً؛ ثم تردف بابتسامة: يبدو لي بعد كل هذه السنوات أن الزواج هو قتلُ عصفورين بحجر واحد. على أي حال، بطيخة الزواج نصيب!

أضحك رغم الألم. تعجبني خفة ظلها رغم جدية عملها وصعوبة أن تقضي نصف عمرك وسط مرضى يتألمون.

أقول لها: ورثتُ كل عشاقي. كنتُ القاتلةَ المتسلسلة للعابرين إلى ضفتي الأخرى. شخصيـــاً، أنا ممتنة لكل نيزك عابر مرَّ في حياتي. سواء لضرر أم لنفع. في النهاية، أنا من أفسح المجال لعبوره.

ربما تنتحر الشهب والنيازك في الفضاء لفرط الوحدة والسكون. وما بين الفينة والأخرى، تفتحُ عينيها وتحدق فينا، ثم تغمضهما من جديد.

تمر عليّ سارة في أيام مناوبتها. تتأملني أحيانـًا وأنا شبه نائمة، كالأخطبوط، تُمدني الأنابيب البلاستيكية التي تخترق وريدي بمصادر الحياة المؤقتة.

أشكو لها من زيادة في الوزن، وآلام حادة تهاجمني ليلاً، فتوصي في ملف متابعة حالتي الصحية بتغيير نوع الحقن وكمياتها، ثم ترفع رأسها لتقول: الألم من علامات الحياة. كلما نجونا ليوم آخر، عرفنا أن هناك ما يستحق أن نعيشه في مقبل الأيام.

تسألني:

- من أي مدينةٍ في مصر أنتِ؟

- من بلدة ريفية صغيرة لن تسمعي عنها يومـًا. بلدة هادئة وفقيرة، تزرع الكتانَ ثوبـًا لأكفَان أهلها الذين يموتون صغارًا.

كعادتها، تتقن تغيير دفة الحديث. تجيد القفز عن صخرة اللحظة الحزينة، وتُحدثني بحيويةٍ عن أبنائها، خالد ورامي ووليد. تقول لي:

- لو أن لكِ أختـًا في مثل عمر خالد، لخطبتُها له. لا أريد له أن يرتبط بإحداهن هنا. تعرفين!

في الحقيقة، لم أكن أعرف.. أو لم أكن متأكدة من رغبتي في فهم ما ترمي إليه.

تلاحظ سارة شرودي، فتبث في نفسي بعض الأمل المخادع:

- كوني قوية. أديري حدقتكِ للمستقبل. إيمانكِ ويقينكِ وصلابة إرادتكِ هي سبيلكِ إلى الخروج من هذه المحنة الصحية. فقط حين نكف عن النظر إلى الوراء، سنرى المستقبل أمامنا.

- أين هذا المستقبل؟ إنها النهاية. أعلم ذلك جيدًا.

- حتى إن كانت كذلك، يكفي أن من يحبّونكِ سيتذكرونكِ. أوليست هذه العلامة الكاملة للحياة؟!

أظنُها ميّزتْ نقطة دمع انحدرت على وجنتي وأنا أستمع إليها.

فرّتْ من صدرها تنهيدة وهي تودعني في تلك الظهيرة.

أعاني وحدةً عصيـــّةً على الذوبان والإعراب. أحس بالعزلة كطيرٍ وقع من عُشّه بجناحين مكسورين.

وحيدةٌ مثل منفضةِ السّجائر. أكياس المحاليل المعلقة التي لها وخزٌ مؤلمٌ في شرايين ذراعي نملٌ يمشي ببطء داخل شراييني.

أجمعُ آلامي في خيط الحزن، فتتأوّهُ الثُقُوب.

يتناسخُ الوقتُ رباء الغرفةِ، فأتساءل: هل سأظل هنا حتى أذوي تمامـــًا، وينهب الترابُ صورتي؟!

أظن أن الموت يتجول فرحـــًا كل مساء في أروقة المستشفى الذي يغص بأنين مرضى لم يعد يزورهم أحد.

في أواخر العمرِ تف الحقيقة: لا أحد يحتكر الحقيقة.

أصحو قبل الموت بقليل. أشعر أني مثل رواية انتزعتْ صفحتها الأخيرة، ونسي المؤلف تفاصيل نهايتها، فبقيت لغزًا حير القراء أعياهم البحث عن الخاتمة الناقصة.

ها أنا أهبط تل العمر وأصرخ من هاوية الألم، وأنا التي نثرتُ قمحَ أحلامي لأستدرج الحقول.

تعرفُ الدرّاجةُ رحلتها الأخيرة. تَهَبُ نفسها للريح، وتنطلق نحو الهاوية.

أفِرُّ إلى دُخانٍ قريب؛ لِإزاحةِ الثّقلِ الذي يَشَلُّ قُدرتي على مواصلةِ الحياة.

كم جرفني الزمن، حتى صرتُ نهرًا ينسابُ وحده باتجاه العدم.

إنه قلبي، ذلك الذي يتدلى الآن من شجرة الحياة، وتلك الوريقات قبري.

إنه جسدي، هذا الذي نبتَ في التربة، وتلك الوريقات فيه مهيأة للجفاف والسقوط.

أحتاج إلى تعليق عبارة أُمّي القديمة أمامي: "ورقته وقعتْ. سقطتْ من "شجرة الحياة"

هناك يدٌ تجرُّني نحوَ ضِفّتي الأُخرى.

يرافقني صوتي تحت التراب ويحتل عظامي.

سأقول لقبري: اتسع قليلاً؛ أفسح مكانـًا لأسراري الخبيئة وانتصاراتي القليلة وضحكاتي المختلسة؛ لتكون رَحِمَ الموت، الذي يُنجِبُني، ولو بعد حين.

سأطلب أن يُكتبَ على شاهِدِه: ماتت من تكرار محاولة تجربة الحياة.

الآن أموتُ وروحي عالية.

في لقائنا الأخير، قالت لي طبيبتي سارة بصوتٍ متأثر:

- عندما تقابلي الله، احكي له حكايتكِ.

- ألا يعرفها؟

- بلى، لكنكِ تجيدين تلاوتها!

سيرة موجزة

ياسر ثابت، صحفي مصري، من مواليد ألمانيا عام ١٩٦٤

حاصل على درجة الدكتوراه في الصحافة عام ٢٠٠٠.

عمل مديرًا للأخبار في قناة سكاي نيوز عربية، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة (٢٠١١)، ومنتجـًا أول للأخبار في قناة الجزيرة في قطر (٢٠٠٢)، ورئيسـًا لتحرير غرفة الأخبار في قناة الحرة في الولايات المتحدة (٢٠٠٧)، ورئيسـًا للتحرير في قناة العربية في دبي، الإمارات العربية المتحدة (٢٠٠٧).

له مؤلفاتٌ عدة، بينها:

- "أيامنا المنسيـّة" (منشورات ضفاف، بيروت/ منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠١٤)
- "تحت معطف الغرام" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٤)
- "مراودة" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٤)
- "زمن العائلة: صفقات المال والإخوان والسلطة" (دار ميريت، القاهرة ٢٠١٤)
- "صناعة الطاغية: سقوط النخب وبذور الاستبداد" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٣)
- "رئيس الفرص الضائعة: مرسي بين مصر والجماعة" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٣)
- "حروب العشيرة: مرسي في شهور الريبة" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٣)

- "دولة الألتراس: أسفار الثورة والمذبحة" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٣)
- "محاكمة الرئيس: البحث عن القانون الغائب" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٣)
- "شهقة اليائسين: الانتحار في العالم العربي" (دار التنوير، القاهرة ٢٠١٢)
- "قصة الثروة في مصر" (دار ميريت، القاهرة ٢٠١٢)، (طبعة ثانية، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠١٣)
- "هيا بنا نلعب: عن الأوطان والأوثان" (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٢)
- "فضة الدهشة: تغريد على غصن تويتر" (دار العين، القاهرة ٢٠١٢)
- "لحظات تويتر: ألف تغريدة وتغريدة" (دار العين، القاهرة ٢٠١١)
- "جرائم بالحبر السري" (مركز الحضارة العربية، القاهرة ٢٠١٠)
- "حروب كرة القدم" (دار العين، القاهرة ٢٠١٠)
- "فتوات وأفندية" (دار صفصافة، القاهرة ٢٠١٠)
- "فيلم مصري طويل" (مركز الحضارة العربية، القاهرة ٢٠١٠)
- "كتاب الرغبة" (الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ٢٠١٠)
- "جرائم العاطفة في مصر النازفة" (الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ٢٠٠٩)
- "يوميات ساحر متقاعد" (دار العين، القاهرة ٢٠٠٩)
- "قبل الطوفان: التاريخ الضائع للمحروسة في مدونة مصرية" (كتاب ميزان، القاهرة ٢٠٠٨)، (طبعة ثانية، دار كنوز، القاهرة ٢٠١٣)

- "جمهورية الفوضى: قصة انحسار الوطن، وانكسار المواطن" (كتاب "ميزان"، القاهرة ٢٠٠٨)، (طبعة ثانية، دار كنوز، القاهرة ٢٠١٣)
- "ذاكرة القرن العشرين" (مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة ٢٠٠١)
- "موسوعة كأس العالم" (مدبولي الصغير، القاهرة ١٩٩٤).

بأي معجزة تُستأنف النار الخامدة؟

نظراتنا الحائرة تشبه جنازة ضلت طريقها إلى المقبرة.

في نهاية اللقاء، عانقني وهمس في أذني: كيف يشاء عاشقٌ أن يسلو نبيّته ونبوته التي تشبه السعادة: كلما تذكرها ابتسم!

كدتُ أقول له: لا يليق بك العناق السريع.

كلّما تأملتُ الصُورةَ الوحيدة التي جمعَتنا، وجدتُ نَفسي أكثر شعورًا بالوحدة من ذي قبل.

عندما غيّرتُ صورة البروفيل، كتب لي رسالة خاصة تقول كلماتها:

"في كل مرة تلتقط فيها الكاميرا صورة لكِ.. يجترح الكون معجزة صغيرة.

في تلك اللقطة المسروقة من الزمن، لن ينتبه أحدٌ إلى بحيرة العسل في عينيكِ، ولن يفهموا أبدًا لحن الرقة في نظراتكِ الأسرة.

لهم الله، العالقون في ماء صورتكِ الجديدة، أيتها المرأة القصيدة".

أكتبُ له ممازحة: "رؤوف، لا بدّ أنك نسيتني يا شاعري الوسيم".

يرد بثبات: "لا تصدقيني حين أقول: نسيتكِ"

حاولتُ كثيرًا، وسافرتُ في البلاد والأجساد؛ لكنني كلما رأيتكِ نسيتُ أن أنسى!".

سقط قلبي في يدي، وسقطتُ أنا من دائرة الحياة.

ياسر ثابت

صحفي مصري، من مواليد ألمانيا عام 1964م.

حاصل على درجة الدكتوراه في الصحافة عام 2000م.

عمل مديرًا للأخبار في قناة سكاي نيوز عربية، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة 2011م.

منتجًا أول للأخبار في قناة الجزيرة في قطر، 2002 م.

رئيسًا لتحرير غرفة الأخبار في قناة الحرة في الولايات المتحدة 2007م.

رئيسًا للتحرير في قناة العربية في دبي، الإمارات العربية المتحدة 2007م.

تصميم: إسراء ياسر

دار اكتب للنشر والتوزيع
DAR OKTOB PUBLISHING HOUSE